جورج أمادو

# فارس الرمال

ترجمة محمد عيتاني

جورج أمادو
فارس الرمال

الى الاصدقاء
بدر

# رسالة من السيد قاضي الأحداث
# إلى هيئة تحرير «صحيفة المساء»

السيد مدير «صحيفة المساء» مدينة سلفادور، ولاية باهيا

مواطني العزيز
تحيات طيبة

اني لدى تصفحي صحيفتكم في احدى الهنيهات النادرة من الفراغ التي تتركها لي مشاغلي المتعددة والمتنوعة في وظيفتي المرهقة، اطلعت على رسالة من حضرة قائد شرطة الولاية الذي لا يكل في تقديم جهوده لخدمة العدالة وراحة المواطنين، ويعرب في رسالته هذه عن الدوافع التي لاجلها لم تتمكن الشرطة حتى هذا اليوم من تشديد الحملة القيمة ضد أولئك الأولاد الخانعين الذين يعيثون فساداً في مدينتنا ويشيعون فيها ما يشبه الدمار من الجرائم والارتكابات المختلفة. ويبرر السيد قائد الشرطة موقفه باعلانه بأنه لم يكن يملك أمراً من محكمة الاحداث لاجل القيام بعمل موجه ضد جرائم الأولاد وجنحهم. وانني، دون رغبة مني في أن اضع المسؤولية بأي حال من الاحوال على قيادة الشرطة الرائعة والتي لا تكل، أرى نفسي ملزماً، في صالح الحقيقة (هذه الحقيقة ذاتها التي نصبتها كمنارة تضيء طريق حياتي بصورتها النقي جداً) بأن اعلن بأن العذر الذي ابداه قائد الشرطة غير صحيح. انه غير صحيح، يا سيدي المدير، لأنه لا يدخل في صلاحيات محكمة الاحداث مطاردة واعتقال الاحداث القصّر الخانعين، بل أن صلاحيتنا هي تعيين المكان الذي عليهم قضاء فترة عقوبتهم فيه، وتعيين قيّم لمتابعة أية محاكمة يحالون اليها الخ. ولا يعود لصلاحية محكمة الاحداث القبض على الخانعين الصغار، بل أن صلاحيتها تقوم في السهر على مصيرهم اللاحق (أي بعد اعتقالهم اثر جرائمهم أو جنحهم). وإن على السيد قائد الشرطة أن يسطر الانتقادات في المكان الذي يدعوني اليه الواجب ذلك لانني طوال خمسين عاماً من حياتي النقية الناصعة، لم

اتلكأ أو أتأخر أو أتردد في تنفيذ واجبي

كما أنني، خلال الأشهر الأخيرة المنصرمة، أرسلت إلى دار الاصلاحية عدة أحداث جانحين أو متشردين. وليس خطأي اذا كان هؤلاء الأولاد الأشقياء يخرجون وإذا لم يكونوا يستفيدون من ميادين العمل التي يجدونها في هذه المؤسسة التربوية، وبالتالي فإنهم يبحثون عن جو يتمتعون فيه بالأمن والعمل، وحيث يعاملون بأكثر عطف. إنهم يخرجون من الاصلاحية ويصبحون أكثر فساداً أيضاً، وكأن المثال الذي تلقوه كان سيئاً وضاراً. لماذا؟ إن هذه مشكلة يعود حلها إلى علماء النفس وليس إليّ الذي لست سوى فضولي صغير يهتم بالفلسفة

وما أريد أن أجعله واضحاً كالبلور، هو أن السيد قائد الشرطة يستطيع الاعتماد على أفضل دعم من محكمة الأحداث لتشديد الحملة ضد الأحداث الجانحين أو المجرمين.

أبي أخص سعادتكم إعجابي وتقديري

**قاضي الأحداث**

(نشر في «صحيفة المساء» مع صورة لقاضي الأحداث وتعليق طرائفي صغير)

## رسالة من أم «خياطة»
## إلى هيئة تحرير «صحيفة المساء»

سيدي المحرر

اعذروني للأخطاء الاملائية والنحوية، نظراً لأنني غير معتادة على مسألة الكتابة، وإذا كنت أبوح اليوم لكم، فذلك لأجل وضع النقاط على الحروف. لقد رأيت في الصحيفة، مقالاً عن سرقات «فرسان الرمال» وإثر ذلك على الفور جاءت الشرطة تقول بأنها ستلاحقهم وحينئذ جاء السيد قاضي الأحداث ليذكر أن من سوء الحظ كثيراً أن هؤلاء الأولاد المعتقلين لا يصبحون أفضل في الدار الاصلاحية التي كان يرسل إليها الأولاد المساكين. ولأجل الحديث عن دار الاصلاح المذكورة أكتب هذه السطور بخطي الرديء. وأتمنى أن ترسل صحيفتكم أقدر محرريها لترى الدار المذكورة ولكي يرى كيف يعامل أولاد الفقراء الذين شاء سوء حظهم أن يقعوا بين حراس تلك



الدار العديمي الروح والرحمة. لقد قضى ولدي الفونس هناك ستة أشهر ولو لم أتدبر المسألة لإخراجه حياً من هذا الجحيم لست أدري ما إذا كان المسكين سيستطيع أن يعيش هناك ستة أشهر أخرى دون أن يموت. إن أقل ما يتعرض له أولادنا في تلك الدار الاصلاحية هو أن ينالوا ضربات تنزل بهم مرتين أو ثلاث مرات كل يوم. إن مدير ذلك المكان يقضي حياته في شرب الخمر إلى حد أنه يتدحرج على الأرض وهو يحب أن يرى السوط يلمع على جسمات أولادنا. وقد رأيت هذا المشهد مراراً عديدة، لأنهم لا يهتمون بنا. وهم يقولون إنهم يعملون ذلك لتربية الولد بالمثل الصالح. لهذا أخرجت ولدي من هناك. وإذا أرسلت صحيفتكم إلى هناك شخصاً بالسر، فسوف يستطيع أن يرى نوعية الغذاء الذي يناله المساكين الصغار. والعمل العبودي الذي يرغمون على القيام به، ولنرى كيف أن رجلاً مكتمل الرجولة لا يستطيع احتمال الضربات وأعمال السخرة التي تصيب الأطفال. ولكن لأجل رؤية هذه المشاهد، يجب أن يذهب أحد محرريكم إلى هناك بصورة سرية وإلا إذا علم المسؤولون عن السجن بوجود مندوب صحفي فإنهم سيظهرون المكان وكأنه جنة مشرعة الأبواب للنعيم. اذهبوا إلى هناك فوراً وسترون من الذي يقول الحق. ولأجل هذه الأشياء، وغيرها أيضاً يوجد «فرسان الرمال». وأفضل أن أرى ولدي بينهم، على رؤيته في تلك الدار الاصلاحية الدائمة الصمت. وإذا أردتم رؤية شيء، اذهبوا إلى هناك. وكذلك، إذا كنتم تريدون، تستطيعون التحدث مع الأب جوزيه بيدرو الذي كان كاهناً هناك، ورأى كل ما تحدثت عنه. وهو يستطيع أيضاً أن يروي ذلك وبعبارات أفضل. لست أملكها.

**ماريا ريشاردينا – خياطة**

(نشر في الصفحة الخامسة من «صحيفة المساء» بين اعلانات، وبدون صورة ولا تعليق)

# رسالة من الأب جوزيه بيدرو
# إلى هيئة تحرير « صحيفة المساء »

السيد مدير تحرير « صحيفة المساء »
تحيات على اسم يسوع المسيح

قرأت في صحيفتكم ذات الشهرة الكبيرة رسالة ماريا ريشارديتا التي تذكرني بصفتي شاهداً قادراً على تقديم إيضاحات حول حقيقة حياة الاولاد المحبوسين في « الدار الاصلاحية » وأنا مضطر للخروج من الظلام الذي اعيش فيه، لأقول لكم بأنه، لسوء الحظ، ان ماريا ريشارديتا هي على حق، إن الاولاد في الدار الاصلاحية موضوع الحديث يعاملون كما تعامل الوحوش الضارية، هذه هي الحقيقة. لقد نسي درس السيد المسيح اللطيف جداً. وبدلاً من كسب ود الاولاد، بطرائق طيبة، فإن السجانين يجعلونهم اكثر تمرداً، بعمليات ضرب متواصلة، وعقوبات جسدية، غير انسانية. وقد سمح بزيارة تلك الدار الاصلاحية لأحمل إلى الاولاد تعزيات الدين، وقد وجدتهم فاقدي الاستعداد لتقبلها. وذلك طبعاً نتيجة للبغضاء التي تتراكم في هذه القلوب الفتية. احدثكم كثيراً بالشفقة وإن ما رأيته هناك، يا سيدي المدير، يمكن أن يقدم محتوى كتاب كامل. مع الامتنان الكبير لانتباهكم من خادم المسيح

الأب جوزيه بيدرو

( رسالة نشرت في الصفحة الثالثة من « صحيفة المساء » تحت عنوان « هل هذا صحيح ؟ » وبدون تعليق ).

# رسالة من مدير الدار الاصلاحية
# إلى هيئة تحرير « صحيفة المساء »

السيد رئيس تحرير « صحيفة المساء »
تحياتي
لقد تتبعت باهتمام كبير الحملة التي تشنها الصحيفة اللامعة في باهيا، هذه الصحيفة



التي تديرونها بذكاء قوي جداً، ضد الجرائم المفزعة لـ « فرسان الرمال » وهي عصابة من الاولاد الجانحين والمجرمين التي تخيف المدينة وتمنعها من العيش باطمئنان. وعلى هذا النحو قرأت رسالتي اتهام ضد المؤسسة التي أديرها، والتي يمنعني التواضع، والوضع وحده حضرة السيد المدير، من أن أصفها بـ « النموذجية ». وبالنسبة للرسالة التي وجهتها امرأة طيبة من الشعب، فلست اهتم البتة بها. فهي لا تستحق أن أرد عليها ولا شك. وهي احدى النساء الكثيرات جداً اللواتي يأتين ويردن الحيلولة دون تحقيق الدار الاصلاحية للمهمة المقدسة لتربية أولادهن. وهن يربينهن في الشارع. وفي الوحل. وحين يخضع هؤلاء الاولاد عندنا لحياة نموذجية، فإن هؤلاء النساء هن أول من يشتكي في حين أن عليهن أن يقبلن أيدي الذين يصنعون من أولادهن رجالاً حقيقيين. وهن ييأسن منذ ذي بدء بطلب الحصول على مكان لأولادهن. واثر ذلك ينتقل اليهم وهم ينتقلون أيضاً إلى نتاج السرقات الذي كان الاولاد يحضرونه إلى البيت. وينتهي بهن الأمر إلى الاحتجاج ضد الدار الاصلاحية ولكن كما سبق لي القول، سيدي المدير، فإن هذه الرسالة لم تثر اهتمامي، انها ليست من امرأة تافهة من الشعب، التي ستفهم العمل الذي احققه، على رأس هذه المؤسسة، وإن ما أثار ارتياعي، يا سيدي المدير، هو رسالة الاب جوزيه بيدرو، رجل الدين هذا الذي ينسى وظائف رسالته، وينطلق بالهجوم ضد المؤسسة التي أديرها، موجهاً اليها اتهامات خطيرة. ان هذا الكاهن (الذي اسميه كاهن الشيطان، إن سمحت لي تسميته بهذه العبارة يا سيدي المدير ) والذي استغل وظيفته للدخول الى مؤسستنا التربوية في أوقات ممنوعة في النظام الخاص بهذه المؤسسة، والذي ضده شكوى جدية، أريد أن أسمعها. لقد حرض الاولاد القاصرين الذين عهدت الدولة بهم الي، على التمرد والعصيان. ومنذ أن دخل إلى هذه الدار ازدادت حالات التمرد ومخالفة الانظمة. إن الكاهن موضوع الحديث ليس سوى محرض، ذي طبع سيء شرير. يقوم بتحريض الأولاد القاصرين الموضوعين تحت حراستي. ولأجل هذا، أريد أن أمنعه من الدخول إلى دارنا الاصلاحية.

ومهما يكن يا سيدي المدير، فإنني انسى حسابي كلمات الخياطة التي كتبت إلى هذه الصحيفة. وأنا الذي اطلب اليكم أن ترسلوا محرراً إلى « الدار الاصلاحية » وانني اعتبر هذه مسألة تخصني شخصياً، وسيكون في وسعكم على هذا النحو، ومعكم جمهور القراء أن تحصلوا على معرفة دقيقة وصادقة وثقة حقيقية حول كيف يعامل الاولاد القاصرون الذين تتجدد نفسياتهم ويحققون التحسن في الدار الاصلاحية للأولاد

# تحت ضوء القمر
# في مستودع قديم مهجور

# المستودع

تحت ضوء القمر، في مستودع قديم مهجور، كان الأولاد نائمين.

في الماضي كان هنا البحر. وعلى الحجارة الكبيرة السوداء لأسس المستودع، كانت الأمواج تتحطم تارة في دوي وطوراً تأتي لتضرب الحجارة بلطف. وكان الماء يمر من تحت الجسر، الذي يرقد تحته الآن أولاد عديدون، تضيئهم خصلة صفراء من ضوء القمر. ومن هذا الجسر، خرجت سفن شراعية لا تحصى، مع شحناتها. وكان بعض هذه السفن هائلة الضخامة، مدهونة بألوان عجيبة، تمضي إلى مغامرات الاجتيازات البحرية. وهنا كانت تأتي السفن لملء عنابرها السفلى، والرسو تحت الجسر ذي الألواح المتآكلة اليوم. وفي الساحل، أمام المستودع، كان يمتد سحر البحر الأوقيانوسي، وكانت الليالي أمامه خضراء معتمة، شبه سوداء، بهذا اللون الغامض السحري الذي هو لون البحر في الليل.

واليوم يرى الليل صبراً تجاه المستودع، وذلك لأنه تجاه الليل تمتد الآن رمال أرصفة المرفأ. وتحت الجسر، لم تعد هناك هدير للأمواج. لقد اجتاحت الرمال كل شيء وأرجعت البحر عدة أمتار. وشيئاً فشيئاً، وببطء، غطى الرمل واجهة المستودع. ولم تعد السفن الشراعية ترسو هنا أبداً. وكانت تبحر من مكان لآخر بحمولاتها. ولم يعد العبيد ذوو العضلات البارزة يعملون هنا، وكان قد أتى بهم نظام الرق. ولم تعد تتصاعد من تحت الجسر أغنية بحار أتلفه الحنين. وقد امتد الرمل بلونه المضيء أمام المستودع. ولم يعد يملأ المستودع الواسع جداً بالبالات والطرود والأكياس والصناديق.

وبقي المستودع مهجوراً، وسط الرمال، بقعة سوداء على بياض أرصفة الميناء.

وطوال أعوام، ظل المستودع مأهولاً فقط بالجرذان التي كانت تجتازه في جري مرح وطائش. وكانت تقضم خشب أبوابه الضخمة. وكانت تسكنه سيدة عليه وحدها. وفي عهد معين، دخل إليه كلب متشرد، كان يبحث عن ملجأ ضد الريح والمطر. ولم ينم في ليلته الأولى. إذ انشغل في تمزيق الجرذان التي كانت تمر أمامه مسرعة. وقد نام إثر

ذلك بضع ليال، نابحاً في وجه القمر، عند الصبح. ذلك لأن قسماً من السقف قد انهار، وكانت اشعة القمر تنفذ بحرية، مضيئة ارض المستودع المصنوعة من الواح خشبية. لكن هذا الكلب كان بلا شك كلباً دون صاحب، فذهب بسرعة باحثاً عن مأوى آخر في ظلمات باب، أو اعماق جسر، أو عن جسد دافىء لكلبة. واستعادت الجرذان مملكتها، حتى اليوم الذي اختار فيه « فرسان الرمال » هذا المستودع المهجور ليكون مقراً لهم.

في ذلك العهد، كان الباب قد انهار من جانب، ودخل احد « فرسان الرمال » إلى المستودع. حين كان يتسكع يوماً عبر املاكه الواسعة. ( ذلك لأن كل منطقة رمال الارصفة، كما هي جميع انحاء مدينة « باهيا » كان يملكها « فرسان الرمال » ).

وكان هنا أفضل موضع تماماً للنوم منه على الرمل العاري، أو في المستودعات الأخرى حيث كانت المياه تتصاعد احياناً عالياً جداً بحيث تهدد باغراقهم. ومنذ تلك الليلة، أخذ قسم كبير من « فرسان الرمال » ينامون في المستودع القديم المهجور، في صحبة الجرذان تحت القمر الأصفر. وأمامهم كان الاتساع اللانهائي للرمال، وهي بياض لا نهاية له أيضاً. وفي البعيد، كان البحر الذي تتكسر امواجه على ارصفة الميناء. ومن الباب، كانوا يرون أضواء السفن التي تدخل وتخرج. وعبر السقف، كانوا يرون السماء المليئة بالنجوم، والقمر الذي يغمر ارجاء السماء والأرض بضيائه الباهر.

وبعد وقت قصير، نقلوا إلى المستودع مخزون الاشياء التي كانت تتجمع لديهم من عمل النهار، وقد دخلت حينئذ إلى المستودع اشياء غريبة، لكنها ليست مع ذلك اكثر غرابة من هؤلاء الأولاد اللصوص الاشقياء من جميع الألوان والاعمار، على اختلافها، منذ سن التاسعة حتى السادسة عشرة، ـ الذين كانوا في الليل يتمددون على الأرض، تحت الجسر، نائمين بلا مبالاة بالريح التي تهب حول المبنى وهي تزمجر، وغير آبهين بمياه المطر التي كانت كثيراً ما تغسلهم، لكنهم يبقون اعينهم موجهة نحو اضواء السفن وآذانهم منتبهة إلى الأغاني القادمة من المراكب...

وهنا يسكن أيضاً زعيم « فرسان الرمال »: بيدرو بالا. ومنذ وقت مبكر، منذ سنه الخامسة، أطلق عليه هذا الاسم. وهو اليوم في الخامسة عشرة من عمره ومنذ عشرة اعوام وهو يتشرد ويتسكع في طرقات « باهيا ». وهو لم يعرف أبداً أي شيء عن امه، وقد قُتل ابوه برصاصة. وبقي بيدرو وحيداً، وقضى سنوات في التعرف إلى المدينة. وهو اليوم يعرف كل دروبها وطرقاتها وشوارعها، ولا يوجد متجر أو محل لبيع الفواكه أو مقهى لا يعرفه. وحين انخرط في « فرسان الرمال » ( إن الارصفة التي بنيت



حديثاً قد اجتذبت برمالها جميع اولاد المدينة المشردين ) كان زعيم « الفرسان » هو رايموندو، « الكابوكل » ( أي الخلاسي البرازيلي )، وكان فتى هجيناً قوي البنية وافر النشاط.

ولم يحتفظ ريموندو « الكابوكل » زمناً طويلاً بمركزه كزعيم « لفرسان الرمال ». وكان بيدرو بالا اكثر نشاطاً منه بكثير. وكان يعرف كيف يرتب الضربات، ويعرف كيف يلاطف الآخرين. وكان يحمل في عينيه وفي صوته سلطة الزعيم. وفي أحد الايام، تشاجرا. وكان من سوء حظ ريموندو أنه استلّ موسى وجرح بها وجه بيدرو وهي ندبة بقيت في وجهه نهائياً. وتدخل الآخرون، ونظراً لأن بيدرو كان بلا سلاح، فقد اعطاه رفاقه الحق. وانتظروا، آملين بانتقام لم يتأخر في الحقيقة. وفي احدى الليالي، حين أراد ريموندو أن يضرب باراندار، وقف بيدرو إلى جانب الزنجي الصغير، وانقلب الخصمان على الأرض ( أي ريموندو وبيدرو )، وانخرطا في صراع أكثر اثارة من أي صراع سبق أن شهدته رمال المرفأ. وكان ريموندو أكبر جسماً واكثر سناً، لكن بيدرو بالا، بشعره الاشقر المتطاير في الهواء، والندبة الحمراء في وجهه، كان ذا رشاقة هائلة في توجيه الضربات. وهكذا تغلب على ريموندو. ومنذ ذلك اليوم، لم يتخل ريموندو فقط عن قيادة « فرسان الرمال » بل ترك المكان كله، والتحق اثر ذلك بالعمل على احدى السفن.

وقد اعترف الجميع بحقوق بيدرو بالا في القيادة وابتداءً من ذلك الحين بدأت المدينة في سماع الحديث عن « فرسان الرمال »، اولئك الاولاد المشردين الذين يعيشون من السرقة. ولم يعرف أحد اطلاقاً العدد المضبوط للاولاد الذين يعيشون على هذا النحو. وكانوا اكثر من مئة ومن بين هؤلاء، كان اكثر من اربعين ينامون في المستودع القديم.

وكانوا يلبسون اسمالاً بالية، وقذرين وأشباه جائعين باستمرار، وعدوانيين، يطلقون الشتائم، ويدخنون اعقاب السجائر، وكانوا في الحقيقة سادة المدينة، أولئك الذين يعرفونها بكاملها، والذين يحبونها كلياً، وكانوا هم شعراءها.

# ليل «فرسان الرمال»

كان ليل السلام الكبير القادم من ارصفة المرفأ قد لف السفن الشراعية، والقلعة، وسد الميناء، وتمدد على طلعات الطرق وأبراج الكنائس. وكانت الاجراس قد كفّت عن الرنين لصلاة الغروب، ذلك لأن الساعة السادسة كانت قد دقت منذ حين طويل. وإذا كان القمر لم يبزغ بعد في هذه الليلة النيرة، فقد كانت السماء ملأى بالنجوم. وكان المستودع منفصل المشهد عن بياض الرمال التي تحتفظ بآثار خطى «فرسان الرمال»، الذين كانوا قد ناموا. وفي البعيد، كان النور الضعيف لـ «بورتا دو مار» (وهي حانة للبحارة) يبدو وكأنه يحتضر. وكانت ريح باردة تهب مثيرة الرمال ومعرقلة سير الزنجي جواو غراندي الذي كان يتأهب للذهاب إلى النوم. كان يمضي منحنياً تحت الريح مثل شراع زورق. كان طويل القامة، وهو أطول فتيان العصابة، وأقواهم أيضاً. وكان شعره قصيراً وعضلاته صلبة، رغم أنه لا يكاد يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، انقضت أربع منها في أوسع حريات الحياة. راكضاً في طرقات «باهيا» في صحبة «فرسان الرمال». ومنذ بعد ظهر ذلك اليوم، حين صرع أبوه، وهو سائق عربة عملاق. في صدمة من شاحنة، في حين كان يقود حصانه إلى جانب الطريق، لم يعد التحق جواو غراندي إلى بيتهم الصغير في «المورو»[1]. وأمام «جواو» كانت المدينة الغامضة الملأى بالاسرار، وقد ذهب لغزوها. إن مدينة باهيا، السوداء والتقية. هي غامضة تقريباً مثل غموض البحر الاخضر وامتلائه بالاسرار. ولأجل هذا بالذات، لم يعد جواو غراندي إلى بيته أبداً. وقد انضم وهو في التاسعة من عمره إلى «فرسان الرمال»، حين كان «الكابو كل» (الخلاسي ريموندو) ما زال هو الزعيم والمجموعة غير معروفة، ذلك لأن الكابوكل لم يكن يحب أن يتعرض للخطر. وبسرعة كبيرة، فرض جواو غراندي نفسه كواحد من زعماء المجموعة، ولم يفته أبداً حضور أي من الاجتماعات التي كان ينظمها القادة لتدبير السرقات. وليس ذلك لأنه

(١) «المورو»: تلة يعيش عليها الزنوج في اكواخ.



كانت له مواهب خاصة كمنظم لحوادث السطو هذه، ولا حتى كان لديه ذكاء حاد بل بالعكس، فقد كان التفكير يسبب له وجعاً في الرأس، وكانت عيناه تحرقانه حين يحاول التفكير. وكان يصاب بذلك الألم أيضاً حين يرى شخصاً ما يسيء معاملة الصغير. حينئذ كانت عضلاته تتوتر، وكان يصبح مستعداً لأية مشاجرة لكن قوته العضلية الهائلة كانت تجعله محتماً مرهوب الجانب، وكان الصبي «دو الرجل الرخوة» يقول عنه:

- إنه زنجي غبي. لكنه قوة جبارة.

وكان الصبيان الأصغر سناً، جميع هؤلاء الصغار الذين يصلون إلى الجماعة مفعمين بالخوف. كانوا يجدون في «جواو غراندي» اقوى حماتهم وأصلبهم. وكان بيدرو الزعيم يحب أيضاً الاصغاء إلى جواو. وكان هذا يعرف جيداً انه لا يحوز على صداقة بيدرو بسبب قوته، أي جواو غراندي، بل إن بيدرو كان يجد أن الزنجي طيب، ولم يكن يتعب من الترديد:

- انك طيب. يا غراندي. وأنت أفضل منّا. انني احبك كثيراً. وكان يربت بلطف على ساقي الزنجي الذي كان وجهه يحمر من التأثر والسرور.

كان جواو غراندي يتقدم نحو المستودع. وكانت الريح تعرقل سيره. وانحنى هو لكي يقاوم ضد الريح التي كانت ترفع الرمال في الهواء. وكان جواو في حانة «بورتا دو مار» يشرب كأساً من الخمر مع «حبيب الله الطيب» الذي وصل اليوم من بحار الجنوب. حيث يوجد أحد المصائد.

وكان «حبيب الله الطيب» هو أشهر لاعب كابويرا[2] في المدينة. ومن الذي لا يحترمه في «باهيا»؟ وما من أحد يستطيع أن ينافس «حبيب الله الطيب» في مصارعة الكابويرا، حتى ولا زيه موليبث الذي حاز شهرة عظيمة في ريو دي جانيرو. وقد روى «حبيب الله الطيب» الاخبار، وأبلغ بأنه سيظهر في اليوم التالي في «المستودع» لمواصلة اعطاء دروس في مصارعة الكابويرا التي يتلقاها بيدرو بالا، وجواو غراندي، والقط. كان جواو غراندي يدخن سيجارة ويسير نحو المستودع. وكان اثر قدميه الكبيرتين ينطبع في الرمل. لكن الريح، كانت تقوم بمحو آثار خطاه. وكان الزنجي

(٢) الكابويرا: طريقة مصارعة ولدت من رقصة للزنوج، وقد احتفظت منها بالايقاع والتي تصاحب حركاتها فرقة حرفية موسيقية خاصة. وهذه المصارعة التي تشكل اسعار الرشاقة على القوة هي المصارعة الوطنية المختارة

يفكر في أن طرق البحر خطرة في هذه الليلة الهوجاء الريح.

كان جواو غراندي يمر تحت الجسر، وتنغرس قدماه في الرمل متلافياً أن يمس أجسام الرفاق الذين يرقدون هنا. ودخل إلى المستودع، وقد تردد لحظة، ونظر حتى يتبين ضوء شمعة «الاستاذ». وكان هذا في ابعد زاوية من المبنى. آخذاً في القراءة على ضوء شمعة. كان جواو غراندي يفكر في أن هذا الضوء هو اضعف وأكثر تراقصاً من ... في حانة «بورتا دي مور» وأن «الاستاذ» يضعف بصره لكثرة قراءته هذه الكتب المطبوعة بأحرف صغيرة. واتجه جواو غراندي نحو «الاستاذ». رغم أنه، أي جواو، كان ينام دائماً عند باب ... ، مثل كلب حراسة، والخنجر قرب يده، لتلافي أية مباغتة.

كان يمضي سائراً بين جماعات الفتيان التي تتناقش، وبين الاولاد النائمين، ووصل إلى قرب «الاستاذ»، وقرفص إلى جانبه، وراح يراقب القراءة المنتبهة للشخص الآخر.

إن جواو - جوزيه «الاستاذ»، منذ اليوم الذي سرق فيه كتاباً من على رف منزل في حي «بارا»، قد اعتبر أستاذاً في هذا النوع من السرقة، بيد أنه لم يقم أبداً ببيع الكتب التي كانت تتكدس في احدى زوايا المستودع، تحت قطع الآجر، لكي لا تقرضها الجرذان. كان يقرأها كلها بظمأ اقرب إلى الحمى. وكان يحب أن يعرف الاشياء، وكان هو نفسه الذي يروي، في كثير من الليالي، للفتيان الآخرين قصص المغامرين، والبحارة والشخصيات البطولية والاسطورية، وهي قصص كانت تشحذ هذه العيون المتوهجة نحو البحر أو نحو طلعات المدينة، في تعطش إلى المغامرات والبطولة. كان جواو - جوزيه هو الوحيد بين فتيان «فرسان الرمال» الذي يقرأ بصورة صحيحة، ومع ذلك لم يقض في المدرسة سوى عام ونصف، لكن الممارسة اليومية للقراءة قد أيقظت خياله كلياً، وربما كان هو الوحيد بين رفاقه، الذي لديه وعي معين لما يوجد من بطولة في حيوات الناس. وهذه المعرفة وهذه القدرة على رواية القصص قد أكسبته احترام «فرسان الرمال» له، رغم أنه كان صغير الجسم، نحيفاً وحزيناً، وشعره البني يتساقط على عينيه الضيقتين الحسيرتين (ميوب). وقد لقب بـ «الاستاذ» لأنه تعلم في احد الكتب المسروقة القيام ببعض الالعاب السحرية، مع مناديل ودراهم، وكذلك لأنه لدى روايته القصص التي كان يقرأها، وكثيراً غيرها كان يتخيلها، كانت لديه القدرة العظيمة والغامضة بالاسرار، لنقلهم إلى عوالم متعددة، وكانت لديه القوة لجعل العيون المتوجهة لـ «فرسان الرمال» تبرق متلألئة كما تتلألأ وحدها نجوم ليل



«باهيا». ولم يكن «بيدرو» بالا يقرر شيئاً دون أن يستشير «الاستاذ»، وكثيراً ما كان خيال «الاستاذ» هو الذي ولد أفضل خطط السرقة. ولم يكن احد يعرف مع ذلك، أنه سيأتي يوم، بعد أعوام كثيرة، حيث سيعلمه أن يروي في لوحات ستثير رعب البلاد، قصة حيوات «فرسان الرمال»، وكثير من القصص الاخرى لرجال يناضلون ويعانون الكثير من المتاعب والمآسي. ربما كانت «دون آنينها»[3] وحدها، أو معها «ماي دي سانتو»[4] هي التي تعرف ذلك، والتي تروي مغامرات الابطال الزنوج والخلاسيين في ليالي العواصف.

ظل جواو غراندي وقتاً طويلاً ينظر إلى الآخر وهو يقرأ. وبالنسبة للزنجي، لم تكن هذه الحروف تعني أي شيء. وكان بصر الزنجي ينتقل من الكتاب إلى ضوء الشمعة المتراقص، ومن هذا إلى الشعر المشعث «للاستاذ». وانتهى به الامر إلى التعب، وسأل بصوته الحار المليء: - أهذا جميل يا «استاذ»؟

حول الاستاذ نظره عن الكتاب، وربت بيده النحيفة المعروقة على كتف الزنجي، أكثر المعجبين به حرارة وقال: انها قصة رائعة يا كبيري العظيم.

والتمعت عينا الأستاذ.

- أي قصة بحار؟

- انها قصة زنجي مثلك تماماً. وهو زنجي وقوي في الحقيقة.

- هل ترويها لي؟

- حين انتهي من قراءة الحكاية، سوف ترى أي زنجي عظيم هو بطلها...

وعاد ليستغرق في صفحات الكتاب واشعل جواو غراندي سيجارة رخيصة، وقدم في صمت سيجارة اخرى «للاستاذ»، وراح يدخن، مترفعاً كما لو أنه كان يسمر في قراءة الآخر، وعبر المستودع كان ينتشر صوت ضحكات، وثرثرات، وصخب. وكان جواو غراندي يتميز بوضوح صوت «ذي الرجل الرخوة»، الذي كان يصر صريراً ويغمغم. كان «ذو الرجل الرخوة» يتكلم عالياً ويضحك كثيراً. وكان هو جاسوس المجموعة، ذلك الذي كان يعرف كيف يدخل طوال اسبوع في

(٣) دون آنينها، حرفياً: السيدة آنيت

(٤) «ماي دي سانتو» و«باي دي سانتو»، كهنة الصلوات الغيبية (أو الشيمية، وهي عبادة الاشياء السحرية) للدين الزنجي. وهؤلاء الكهنة كانوا على حد سواء، نساء - أي ماي دي سانتو، أو الرجال، باي دي سانتو، أي بالضبط أم القديس أو أبو القديس.

احدى العائلات، متظاهراً بأنه غلام طيب صغير اضاعه اهله في الاتساع العدواني للمدينة

وكان اعرج. لُقب لاجل ذلك بـ «ذي الرجل الرخوة»، لكنه عاد عليه ايضاً بعطف امهات عائلات بريئة على عتبة منازلهن، مستكيناً حزين المظهر، يستعطي قليلاً من الطعام والمأوى لأجل ليلة. والآن وسط المستودع، كان «ذو الرجل الرخوة» يسخر من «القط» الذي اضاع نهاراً بطوله في سرقة خاتم بلون نسذي، دون أية قيمة، لأنه حجر مزيف ذو جمال مزيف أيضاً

وكان قد مر اسبوع و«القط» قد ابلغ جميع الناس قائلاً. لقد رأيت احد تلك الخواتم الرائعة، يا اخي الكبير، الذي لا يملك مثله حتى المطران. انه خاتم ملائم تماماً لأصبعي ملائم كلياً أيها الأخ. وسوف ترى حين سأحضره

- من أية واجهة زجاجية؟

- في أصبع احد الحمقى وهو شخص بدين جداً يستقل كل يوم قطار بروتاس، في اسفل حي ساباتيرو

وقد نجح «القط» اخيراً وسط الزحمة الشديدة في قطار الساعة السادسة مساء، في سحب الخاتم من أصبع الرجل البدين، مختبئاً وسط الهرج والمرج الذي ساد القطار عند صراخ الرجل الضخم حين تبين سرقة خاتمه. وأظهر «القط» الخاتم في اصبعه الأوسط لرفاقه من «فرسان الرمال».

وكان «ذو الرجل الرخوة» يضحك

- هل يمكن لشخص عاقل أن يعرض نفسه للسجن لأجل قذارة كهذا الخاتم. انه خاتم قذر

- وماذا يهمك أنت من هذا؟ أنا يروق لي هذا الخاتم، وهذا كل شيء.

- انك تجلس هنا كالاحمق مع هذه القذارة.

- ولكن بالعكس، فهو لطيف جداً في اصبعي. ولدي فكرة أخرى لأسرق خاتماً اجمل منه أيضاً

وكان الفتيان يتحدثون أيضاً طبعاً عن النساء، رغم أن اكبرهم سناً لا يكاد يتجاوز السادسة عشرة من عمره. وكانوا في سن مبكرة يعرفون اسرار الحب.

إن بيدرو بالا، الذي دخل، قد حسم المجادلة التي نشبت. وترك جواو غراندي «الاستاذ» في قراءاته، واقترب من الزعيم. وكان «ذو الرجل الرخوة» يضحك لوحده، متمتماً بكلمات في صدد الخاتم. ودعاه بيدرو، واتجها يتبعهما جواو غراندي، نحو الزاوية حيث يوجد «الاستاذ»

- تعال ادن. ايها «الاستاذ»

وجلسوا اربعتهم. واشعل «ذو الرجل الرخوة» عقب سيجارة ممتازة، وراح يدخنها بلذة. وكان «جواو غراندي» يتفحص القسم من البحر الذي كان يرى عبر الباب، وراء الرمال. وتكلم بيدرو

- إن غونزاليس من الحي (١٤) قد حدثني اليوم.

- هل هو يريد أيضاً سلسلة ذهبية؟ وفي المرة الاخيرة... وتوقف «ذو الرجل الرخوة» عن الكلام

قال بيدرو: كلا، بل انه يريد قبعة ولكن من اللبد الممتاز. أما قبعة القش فلا تساوي شيئاً. وهو يقول ان هذه لا يمكن عملها... وكذلك..

- غداً أيضاً هكذا؛ قاطعه محدداً «ذو الرجل الرخوة».

- وكذلك فإن القبعات البالية جداً لا تناسب

- إنه يريد قبعة فاخرة من اللبد. لا غير. وعلى كل حال، فنحن نعمل معه في تجارة. وهو لا يجود علينا حتى بنصف دورس.

- لا بأس يا «ذا الرجل الرخوة». إذا كنت تريد السير في المسألة. اذهب. ولكن دعنا نرتب المسألة بصورة منظمة وصالحة

- «أقل اني لا أريد المضي في هذه العملية. بل اقول فقط إن العمل من أجل حيي يسرق الموميسات ليس عملاً مناسباً. ولكن اذا كان يروق لك

- إنه يقول بأن هذه المرة سيكون سخياً معنا. وسيقدم مالاً يساوي جهدنا. لكنه لا يريد سوى قبعة من اللبد، قوية وجديدة. واسمع، «ذو الرجل الرخوة» سوف نستطيع مع آخرين ان نأخذ المسألة على عاتقك. وغداً مساءً، سيرسل غونزاليس إلى هنا مستخدماً من الحي ١٤، لحمل النقود وأخذ القبعات

- ان المكان المناسب لهذه العملية هو دور السينما. هكذا قال «الاستاذ» وهو يلتفت نحو «ذي الرجل الرخوة»

- إن سينما «فيكتوريا» هي مكان يقصده الناس الاغنياء

وابدى «ذو الرجل الرخوة» حركة ازدراء. ويكفي الامر الدخول إلى أروقة السينما، والعثور على قبعات بالتأكيد. وهذه الدار هي مقصد الناس من ذوي اليسر والغنى... من أعلى مستوى من الناس

- وهناك رجال الشرطة أيضاً

- هل نبهت الشرطة؟ إن حراس دور السينما يكتفون بالتفرج على الأفلام، وممارسة لعبة التحشئة

- هل تأتي معي أيها «الأستاذ»؟

- سآتي لا سيما وأنا في حاجة إلى قبعة جديدة

وأضاف بيدرو بالا

خذ في رفقتك من تريد من الفتيان، يا «ذا الرجل الرخوة» باستثناء الطويل و«القط» اللذين لدي معهما مشروع لأجل الغد

وابتسم نحو «جواو غرانديه»

- إنها عملية مع «حبيب الله الطيب»

- لقد سبق وحدثني عنها وقال إنه جاء هذه السنة لأجل مصارعة «الكابويرا»

وانصرف بيدرو نحو «ذي الرجل الرخوة» الذي كان ينسحب ليدبر مع صاحبه الفتى «سكر الشعير» تشكيل الفريق من الصبيان الذي سيذهب في اليوم التالي للبحث عن قبعات وقال له بيدرو

- نبه، يا «ذا الرجل الرخوة»

ونبه الفتيان إلى أنه إذا افتضح أمر أحدهم فعليه أن يفارق هذا المكان نهائياً ويجب أن لا يعود إلى هنا إطلاقاً

وغضب بيدرو بسخرية، ومد نحو جواو غرانديه واحدة وكان «ذو الرجل الرخوة» الذي صار نعسان، كان يدعو «سكر الشعير» وراح بيدرو يبحث عن «القط» وكان يرى أن يناقش معه مسألة عملية أخرى وعاد إثر ذلك، وتمدد قرب موضع جلوس «الأستاذ» ... هذا كتابه، وظل عاكفاً على قراءته حتى ذابت الشمعة كلياً، وغمرت الظلمة ذلك المكان وسار «جواو غرانديه» بهدوء نحو الباب، حيث رقد بطوله، واستحجر في حرامه

كان «سكر الشعير» نحيفاً وطويلاً جداً، ذو وجه جاف شبه مصفر، وعينين غائرتين تحاصرهما السواد، وفم دقيق. فقبل الإمام وراح «ذو الرجل الرخوة» في تجريحه، سائلاً إياه إذا كان قد أدى صلواته، ثم تطرق إلى موضوع سرقة القبعات، وقد اتفقا على أنهما سيصطحبان عدداً من الأولاد الذين اختار هم بعناية، وعين موضع القبعات وافترقا وذهب «سكر الشعير» إلى موضعه المعتاد، في إحدى زوايا المستودع، وكان ينام بصورة دائمة في موضع بدي تشكل الجدران عنده زاوية داخلة، وقد وضع هناك كل أشيائه وممتلكاته، وهي عبارة عن لحاف بال، ووسادة



سرقها من فندق حيث دخل إليه في أحد الأيام حاملاً متعة أحد المسافرين وكان لدى «سكر الشعير» أيضاً بنطلون كان يلبسه يوم الأحد مع كثرة لا يمكن تحديد لونها، لكنها نظيفة بعض الشيء، على كل حال وكانت هناك صورتان لقديسين موضوعتان في إطارين، وهما مسمرتان في الجدار، كانت إحداهما صورة للقديس أنطوان يحمل بين ذراعيه الطفل يسوع المسيح، (كان اسم «سكر الشعير» هو أنطوان، وقد سمع من يقول أن القديس أنطوان كان برازيلياً) والصورة الثانية كانت تمثل «سيدتنا ذات السبعة آلام»، ذات الصدر المثقوب بالسهام، ولكن كانت توجد تحت إطارها زهرة ذابلة وتناول «سكر الشعير» الزهرة، وشمها ووجد أنها لم تعد تفوح بأية رائحة وحينئذ عقفها في الكتفية (وهو ثوب يلبسه الرهبان على الكتفين والظهر) التي كان يرتديها على صدره، وأخرج من جيب سترة قديمة يلبسها، زهرة قرنفل حمراء قطفها من إحدى الحدائق، تحت نظر الحارس بالذات، عند لحظة الغروب الغامضة ووضع القرنفلة بعناية وحب تحت إطار الصورة. في حين راح يتأمل القديسة بنظرة متعمة بالحنان وإثر ذلك على الفور، ركع يصلي وفي البدء كان الفتيان الآخرون يهزلون بالتشكيك عليه لرؤيته راكعاً في الصلاة ومع ذلك فقد اعتادوا على مشاهدته كذلك ولم يعد أحدهم يعير الأمر أهمية وراح يصلي، وكان مظهره المعبر كزاهد يردد طهوره وكانت يداه الطويلتان والنحيفتان ترتفعان أمام صورة القديسة، في حركة عبادة وكان كل وجهه كأنما هو يحتضر بهالة وكان صوته يكتسب أنغاماً ورعشات يجهلها رفاقه وكان يظهر مأخوذاً إلى خارج هذا العالم، وكأنه لم يعد داخل المستودع الداعي والمهدم بل في أرض أخرى قرب سيدتنا ـ ذات الآلام ـ السبعة، بيد أن صلاته كانت مبسطة، وهي لم يتعلمها في كتاب الصلوات كان يطلب في صلاته من العذراء مساعدته في أحد الأيام لكي يستطيع الدخول إلى تلك الكلية المدينة (السوردية) التي سيخرج منها الفتيان وقد تحولوا إلى كهنة وكان «ذو الرجل الرخوة» قد رتب تفصيلاً عملية القبعات وإثر رؤية رفيقه وهو يصلي، تأمله بمزاح خبيث، وهو مزاح كان مجرد التفكير فيه يدخل السرور والبهجة إلى قلبه، وكان يشوش بذلك كلياً صلاة صديقه «سكر الشعير» وحين وصل «ذو الرجل الرخوة» إلى قرب المصلي، رآه في حالته هذه، رافعاً يديه في حركة عبادة وعيناه مرتفعتان في مكان مجهول، ووجهه مضيء بنيرة لا إيمان، (وكان كأنه مغمور بهاء ونعيم لا حدود لهما) توقف «ذو الرجل الرخوة» وماتت الضحكة الساخرة على شفتيه، ولبث يتفحص صديقه، وهو شبه خائف وقد اجتاحه شعور بعود بعض

الشيء إلى الرغبة وإلى اليأس. وتوقف «ذو الرجل الرخوة» ناظراً، ولم يكن «سكر الشعير» يتحرك. وكانت شفتاه وحدهما تتحركان ببطء. وكان من عادة «ذي الرجل الرخوة» أن يسخر منه كما كان يسخر من جميع الصحاب الآخرين. في مجموعة رجي من «الأسد» الذي كان يحبه، ومن بيدرو بالا الذي كان يحترمه. وكان كل وافد جديد إلى «فرسان الرمال» يكون لدى وصوله فكرة قاسية عن «ذي الرجل الرخوة»، ذلك لأن هذا الأخير كان يسارع إلى مهره بنعت، ضاحكاً إزاء أية عبارة يسقط بها بعضو جديد. وكان يحول كل شيء إلى موضوع مضحك، وكان من أكثر الفتيان ولعاً بالتعارك والمشاجرة، وكانت شهرته في الخبث راسخة مقوة. وفي أحد الأيام، قام بعملية تعذيب عنيفة ضد قط دخل إلى المستودع القديم. وفي مرة أخرى، قفز بضربة موسى علامة في أحد المطاعم ودخل فقط ليسرق منه مروحاً مشوياً. ولكن رفاق «ذي الرجل الرخوة» قد رأوه يوماً وهو يشق، ببرود، جراحاً في ساقه بواسطة مطواة (عربية) وتحت نظر الجميع قام بذلك الفعل وهو يضحك. وفي المجموعة كان كثيرون لا يحبونه. لكن الذين كانوا يغضون النظر عن عيوب «ذي الرجل الرخوة» ويرتبطون معه في صداقة كانوا يقولون عنه إنه «شخص طيب». وفي أعماق قلبه، كان يتألم لآلامهم ومصائبهم جميعاً. وكان وهو يضحك ويسخر، ينتقم من مأساته بنفسه وكان ذلك بالنسبة إليه متى تحرر. وقد مكث ساكناً دون حركة وهو ينظر إلى «سكر الشعير» المستغرق في صلاته. وعلى وجه المصلي، مرت بغتة حماسة شديدة، وشيء جعله منذ بدء «ذو الرجل الرخوة» ابتهاجاً أو غبطة. لكنه راح يتفرس في وجه الآخر، وعثر فيه على نعيم لم يكن يعرف كيف يحدده، وكان يقلص وجهه الصغير ويفكر في أنه لم يحدث، لم يسبق له أبداً في حياته أن فكر في الصلاة ولا في أن ينجه نحو السماء، التي كان يحدثهم عنها كثيراً الأب خوزيه بيدرو، حين كان يأتي لزيارتهم. وكل ما يريده «ذو الرجل الرخوة» هو السعادة، والفرح والبهجة. وكان يفر من كل هذا البؤس وهذه التعاسة التي تحوم حولهم وتخنقهم. صحيح أنه كانت هناك حرية كبيرة في الطرق وشوارع شاسعة لا تحد. ولكن كان هناك ... كلام طيب، وهذا كله كان «سكر الشعير» يبحث عنه في السماء، وفي الصور ... وفي الأزهار ... التي كان يأتي بها ... الأيام السعيدة، ... في حي المدينة الأرستقراطي حي ... التي يحبها. ... «ذو الرجل الرخوة» لم يكن



يفكر في أن هذا يمكن أن يكفي. وكل ما يريده هو، شيئاً فورياً، شيئاً يملأ وجهه باسماً ومبتهجاً، ويحرره من الحاجة والعوز، ويجعله يسخر من الجميع ومن كل شيء. وأن يحرره أيضاً من هذه الغصة وهذا القلق الخانق وهذه الرغبة في البكاء التي كانت تنتابه في ليالي الشتاء. ولم يكن يريد الأشياء التي يسعى إليها «سكر الشعير». هذه العذوبة الحميمة في وجهه. كان «ذو الرجل الرخوة» يريد الفرح والبهجة، ويريد مداعبة، وشخصاً يسليه بكثير من أحب الدعابة الجسدية (من عرجه) وجميع هذه السنوات (وربما لم تكن هي بالكاد سوى شهور أو أسابيع لكن بالنسبة له ستظل دائماً أعواماً طويلة) التي عاشها وحيداً في طرقات المدينة وشوارعها، يعامله الكبار بقسوة وسخرية، ويهال رجال الشرطة عليه بالضرب، ... ، وكذلك لاستغناء الأكبر سناً. ولم يكن له أبداً عائلة وقد سكن في منزل خباز كان هو يناديه «يا عرابي» لكن هذا كان يضربه أيضاً. وقد فر من ذلك المنزل بعد أن استطاع أن يفهم أن الفرار يمكن أن يحرره. لقد عانى الجوع، ثم في أحد الأيام ساقوه إلى السجن كان يريد مداعبة حنان، ويبدأ يمحو من عينيه ذكريات تلك الليلة في السجن، حين جعله الجنود السكارى يركض على رجله العرجاء دائراً حول الغرفة. وفي كل زاوية كان يوجد شخص مسلح بهراوة من المطاط الصلب. والآثار التي تركتها هذه الهراوات على ظهره قد امحت، ولكن في أعماق نفسه لم يمح أبداً الألم الذي أصابه في تلك اللحظة. كان يركض في الغرفة مثل حيوان تطارده حيوانات أخرى أقوى منه. كان يجد صعوبة في تحريك ساقه العرجاء. وكان سوط المطاط ينزل على ظهره حين كان التعب يجبره على التوقف. في البدء كان يبكي كثيراً، ثم ودون أن يدري كيف جفت دموعه. وفي لحظة معينة، لم يعد يقوى فيها على الضرب الذي يناله، سقط منهاراً على الأرض. كان لحمه المحروق ينزف دماً، وما زال حتى اليوم، يسمع ضحكات الجنود وضحكة ذلك الرجل ذي الصدرية الرمادية الذي كان يدخن سيجاراً. وإثر ذلك، التقى بفرسان الرمال، (وكان الأستاذ هو الذي جاء به، بعد أن نشأت بينهما صداقة على مقعد في حديقة) وبقي بينهم. ولم يفطن به الأمر حتى غير ذلك لأنه كان يعرف أنه أفضل من أي شخص آخر، أصابع ... وبذلك يخدع الشهوات (ربات المنزل) اللواتي كان يسرق ... بعد ذلك أفراد العصابة الذين كان قد أعلمهم بجميع المواضع التي تحتوي على الأشياء الثمينة. ولكن عادت المنزل. وكان «ذو الرجل الرخوة» يحس بارتياح حقيقي حين يتصور كم سوف يتعبه هؤلاء النساء اللواتي حسبنه يتيماً مسكيناً. هكذا كان يثأر، لأن نفسه كانت مملوءة بالحقد والبغضاء. كان يحس برغبة سوداء في امتلاك قبلة (مثل

تلك القنابل التي ورد ذكرها في قصة رواها «الاستاذ») قنبلة تستطيع أن تدمر المدينة كلياً، وأن تنسف العالم بأسره. وعلى هذا النحو سوف يكون سعيداً. وربما سيكون سعيداً أيضاً اذا جاء شخص، ربما امرأة ذات شعر وخطه الشيب، ويدين ناعمتين، تشده على صدرها، وتداعب وجهه وتجعله ينام نوماً هنيئاً، نوماً لا تعكره كوابيس ليلة السجن. على هذا النحو سيكون سعيداً، ولن يفعم الحقد قلبه بعد ذلك. ولن يشعر بعد ذلك بالازدراء ولا بالحسد، ولا بالعصاب ضد «سكر الشعير»، الذي يفر، رافعاً يديه إلى الأعلى، نحيبين بانتني، من عالم الآلام نحو عالم عال، تكشف عنه احاديث الاب جوزيه بيدرو.

اقتربت خمسة اصوات. ووصلت جماعة من اربعة غلمان تشق السكون السائد في ليل المستودع. قفز «ذو الرجل الرخوة» ضاحكاً وراء ظهر «سكر الشعير»، الذي استمر يصلي ورفع كتفيه وقرر أن يترك إلى صباح اليوم التالي تحديد تفاصيل سرقة القبعات. ونظراً لأن «ذا الرجل الرخوة» يخشى النوم، فقد تقدم نحو جماعة الغلمان التي وصلت، وطلب سيجارة، معلقاً ببعض النكات حول قصة المرأة، التي كان يرويها الغلمان الأربعة.

- صبيان من طرازكم، من يمكن أن يصدق بأنكم قادرون على بطح امرأة؟ لا بد أنها حالة لعينة تلبس ثياب بنت صغيرة.

غضب الآخرون.

- لا تتظاهر بالمكر والشطارة على كل حال. اذا شئت تعال لنرى معاً، وهكذا سوف نتعرف إلى البنت التي تشكل فريسة جيدة.

ضحك «ذو الرجل الرخوة» ساخراً.

- بي بنت من مكافحي الجرائم... ومضى إلى عمق المستودع.

لم يكن «القط» قد نام بعد. انه يخرج دائماً بعد الساعة الحادية عشرة، انه الغلام الانيق في الجماعة. وعند وصوله وهو غلام ابيض وودي، حاول «الشارب اللطيف» الاستيلاء عليه، ولكن منذ ذلك الحين، كان «القط» ذا رشاقة وخفة هائلتين. ولم يكن عادماً، كما كان يظن «الشارب اللطيف»، من عائلة برجوازية. بل كان «القط» قادماً من الهنود المالوكيريوس، وهم اولاد يعيشون تحت جسور اراكاجو، المدينة البرازيلية. وقد قام برحلته متعلقاً بمؤخرة احد القطارات. وكان مطلعاً على الحياة التي يمكن ان تعيشها جماعة من الاولاد المشردين. وعلى كل حال، كانت سنه تربو على ثلاثة عشر عاماً. هكذا، استعمل فوراً اسلوب ... من أجله «الشارب اللطيف» باحترام كبير. وكان «الشارب اللطيف» خلاسياً مربوع القامة، قبيح الشكل، قدم



للغلام الوافد حديثاً سجائر وأعطاه شيئاً من غدائه وارتاد المدينة معه. واثر ذلك، اشتركا في سرقة حذاء جديد كان معروضاً في واجهة دكان في حي الكندرجية. وقال «الشارب اللطيف»:

- كن مطمئناً، أنا اعرف أين يمكن أن نبيع هذا الحذاء.

ألقى «القط» نظرة على حذائه البالي.

- كنت بالضبط اريد أخذ هذا الحذاء لي. لقد بدأت احتاجه.

- أنت! أنا أرى أن حذاءك ما زال جيداً تماماً... هكذا صاح «الشارب اللطيف» الذي كان نادراً ما يلبس حذاء، وكان حافياً في ذلك الحين.

- سأدفع لك ثمن حصتك. ما رأيك؟

ألقى «الشارب اللطيف» نظرة على رفيقه. كان «القط» يلبس ربطة عنق رقيقة، وسترة مرقعة، وشيء هائل! كان يلبس حذاء وجوربين.

قال له «الشارب اللطيف» بابتسامة: أنت تمارس الاناقة، اليس كذلك؟

- إنني لم أولد لأجل هذه الحياة. لقد ولدت لأعيش في عالم العظماء. هكذا قال «القط» مردداً عبارة سمعها يوماً من جواب (بتشديد الواو) غاوي، في احدى حانات اراكاجو.

مؤكد أن «الشارب اللطيف» كان يرى «القط» لطيفاً فاتناً. كان هذا ذا هيئة رقيقة، ومع أن جماله لم يكن انثوياً، فقد كان يروق لـ «الشارب اللطيف» الذي، على كل حال، لم يكن يروق للنساء كثيراً، ذلك لأنه كان قصيراً ونحيفاً. فكان يظهر اصغر بكثير من سن الثلاثة عشر عاماً، التي هي سنه فعلاً. أما «القط»، من جهته، فكان طويل القامة، وهو في الرابعة عشرة من عمره، وقد بدأ زغب ناعم ينبت على شفتيه، وكان يعتني به كثيراً.

ورأى «الشارب اللطيف» أن من الأفضل أن لا يلح في التقرب الى الغلام، لكي لا يثير خوفه. لم يكن يعرف أي شيء عن «القط»، ولم يكن يتصور أن هذا يدرك مقصده تماماً، وأنه يتقرب له لكي يمسكه.

سارا معاً هرباً من الليل، وهما ينظران إلى أضواء المدينة. (كان «القط» مذهولاً في موقع ...). وحوالي الساعة الحادية عشرة ليلاً، عادا إلى المستودع. وقدم «الشارب اللطيف» «القط» إلى بيدرو، واصطحبه، أي «القط»، إلى حيث ينام.

- هذي غطاء هنا. وهو كبير بحيث يتسع لنا نحن الاثنين.

رقد «القط» وتمدد «الشارب اللطيف» إلى جانبه. وحين ظن أن الآخر قد أغفى،

احتضنه بأحد ساعديه، وبالساعد الآخر بدأ يلطف ... من لباسه، وبمصمصة عيني، نهض «القط» واقفاً

- انت غلطان يا حلاّمي. فأنا رجل!

لكن «الشارب اللطيف» لم يبال باحتجاج «القط»، لم يكن يرى سوى رغبته، رغبته في جسد «القط» الأبيض الوردي، كان يريد أن يدس وجهه في شعر «القط»، وأن يمص صدره ... خصره، وإليتيه (طبعاً!). فانقض عليه مصمماً على نصحه واغتصابه، لكن «القط» قاومه بشدة، ودفعه عنه بعيداً، فانبطح «الشارب اللطيف» على وجهه وكان الغلمان قد اجتمعوا حول الصبيين المتصارعين.

- لقد اعتبرني «موضوعاً» قابلاً، يا لوطي. اليك عني يا عـ... !

وجر «القط» غطاءه «الشارب اللطيف» نحو زاوية أخرى، واتجه إلى النوم. وبقي الغلامان متخاصمين بعض الوقت، ثم تصالحا والآن حين كان «القط» يمر من صدقة صغيرة، كان يعطيها الى «الشارب اللطيف».

في ... الثاني، كان «القط» ... في شارع المومسات، وكان شعره يلمع ... رخيص، وعقدة الرقبة معقودة حول عنقه، وهو يصفر كأنه أحد ... المعهودين. كانت النساء ينظرن اليه ويضحكن.

- انظروا ... هذا الديك الصغير عن اي شيء جاء يبحث هنا؟

كان القط يرد على الابتسامات ويتابع طريقه.

كان ينتظر أن تدعوه احداهن ليمارس معها الحب لكنه لم يكن يريد أن يجامعها لقاء نقود يدفعها ... ليس فقط لأن ثروته لم تكن تتجاوز الألف وخمسمئة ريال، بل لأن «فرسان الرمال» لا يحبون دفع المال للنساء. وكان لديهم الفتيات الصغيرات في سن السادسة عشرة، اللواتي كانوا يجمعونهن على الرمال.

لم تكن هناك ... فالنساء كن يهمسن بوجهه الصبياني ... ويتمنين أن يمارسن الحب معه. لكنهن لم يكن يدعونه لأن الوقت كان وقت ... وفي الغد ... لذلك كن يكتفين بالضحك والمرح وكن متأكدات من أنه سيصبح يوماً من الأيام احد أولئك العوادين الذين يملأون حياة ... يأخذون منها، ويضربونهن. لكنهم ... كثيراً من الحب ... منهن ... المرأة الأولى هذا الشقي الشاب. لكن الساعة كانت العاشرة وهي ساعة ... وكان «القط» يسير من ساحة إلى أخرى، بلا جدوى. وحينئذ سمع ... القادمة من الشارع، غارقة في معطف من الفرو، ...



من هذه البيئة الصيفية وتجاوزته دون أن تراه تقريباً. كانت امرأة في حوالي الخامسة والثلاثين، ممتلئة الجسم بل بدينة، وذات وجه شهواني جداً. وسرعان ما اشتهاها «القط» فتبعها، ورآها تدخل إلى بيتها دون أن تلتفت اليه. وبعد لحظة، ظهرت من نافذة ... «القط» ... في الشارع، ثم هبط عائداً، لكنها لم تمنحه أية نظرة. ثم مر رجل عجوز، ودعته، فصعد إلى بيتها. وواصل «القط» الانتظار، لكنها، حتى بعد خروج العجوز مسرعاً، ساعياً لأن لا يراه أحد، لم تعد الى النافذة.

وليلة بعد ليلة، كان «القط» يعود الى نفس المكان في الشارع، لمجرد أن يراها فقط. ولأن أصبح كل المال الذي يحصل عليه «القط» من السرقات والاختلاس ينفقه على شراء بدلات مستعملة، لتبرز أناقته. كان يقلد بأناقة المتسكعين (لاومانش) الكاملة كثيراً، في طريقة المشي، وامالة القبعة، وربط عقدة الرقبة بصورة مهمة ... في الملابس بحد ذاتها. كان «القط» يشتهي «دالف» بنفس الطريقة التي يشتهي بها الاكل حين يجوع، والنوم حين ينعس. وكان قد كف عن استجابة دعوات ... الاخريات، اللواتي بعد أن حصلن على مصروف الغد، أصبحن يردن ... ممارسة الحب مع هذا الغلام الشقي ... فقط ... ولذلك فقط بقصد الاستعلام عن حياة «دالف» ... على هذا النحو علم من تلك المرأة أن «لدالف» عشيقاً وهو عارف ... في احد المقاهي، وكان يأخذ منها النقود التي تكسبها. وكان أيضا ... سكر في بيت عشيقته سكراً شديداً بحيث كان يفقد ... جميع ... المرة

كان «القط» يعود كل ليلة ... تمنحه «دالف» ... نظرة. ... كان ... يردد ... كان يمضي وقته في ... حتى الساعة الثانية عشرة والنصف بعد منتصف الليل، وحين كان عارف ... «دالف» من نافذتها، ثم يدخل من الباب، ... الاضاءة. حينئذ كان «القط» يعود إلى المستودع. ولا يفكر ... عارف ... في احدى الليالي ... أنه مات ... كان ضعيفاً، ... لن يستطيع أن يتحمل قوة «القط» الذي هو في الرابعة عشرة من العمر ... على ... كان يحملها تحت قميصه.

وفي احدى الليالي، لم يحضر عارف ... هبطت «دالف» ... على وجهها ... كالمجنونة، وعادت ... متأخرة إلى بيتها، ولم ... أي رجل. ووقفت الآن في النافذة. رغم أن ... الثانية عشرة ... كانت قد ... وسط ... الشارع من ... ثم لم ... احد ما عند «القط» ... «دالف» التي كانت ما تزال تنتظر في النافذة. كان «القط»

نعم أن هذه الليلة هي ليلته، وأحس بالسعادة. وفقدت «دالفا» كل أمل بحضور عشيقها عارف الناي. حينئذ راح «القط» يخطر ذهاباً وإياباً في الشارع. إلى أن لاحظته المرأة، وأومأت له فاقترب فوراً، وابتسم لها

ـ ألست القديس الصغير الذي يمر كل مساء في زاوية الشارع؟

ـ إن الذي يمر كل مساء في زاوية الشارع هو أنا. أما قصة القديس الصغير هذه

ابتسمت المرأة في أسى وقالت «للقط»:

ـ هل تريد أن تؤدي لي خدمة؟ سوف أعطيك شيئاً ما. ثم فكرت إثر ذلك، وقالت بكآبة:

ـ لا. لا بد أنك تنتظر صديقتك، ولن تريد أن تضيع الوقت

ـ بلى. أستطيع. إن التي انتظرها لن تأتي بسرعة

ـ إذن، أريد يا غلامي الصغير أن تذهب إلى شارع روي ـ بارسورا، الرقم ٣٥ تسأل عن السيد غاستون. إنه في الطبقة الأولى. قل له أنني في انتظاره

ذهب «القط» وهو يحس بالأهمية. وفكر في البدء بأن لا يذهب، وأن لا يعود إلى الزاوية «دالفا». لكنه إثر ذلك قرر أن يذهب، لكي يرى عن قرب أكثر، هذا الذي يتجاسر على التخلي عن امرأة جميلة جداً مثل «دالفا». ووصل إلى البناية (وهي عمارة سوداء، مؤلفة من عدة طبقات)، وارتقى السلم. وفي الطبقة الأولى، طلب إلى غلام كان واقفاً في الرواق أن يدله على غرفة السيد غاستون. وأشار الصبي إلى الباب الأحمر. ودق «القط» الباب. ففتحه عارف الناي، كان في المجلس السفلي، وفي السرير، لاحظ «القط» امرأة عارية. وكان كلاهما ثملين. وقال «القط»:

ـ أنا قادم من عند «دالفا»

قال عارف الناي: أن دعني بسلام. لقد قرفت منها

ووضع الرجل يده المفتوحة على عنقه. وقالت امرأة من داخل الغرفة:

ـ من هو هذا الغلام الجميل؟

أجابها عارف الناي: ـ لا تدخلي أنت

ثم أضاف بسرعة

ـ إنها رسالة من تلك المومس «دالفا» المغرورة. إنها تكاد تموت لكي أعود إليها

ضحكت المرأة ضحكة سكرى بتدلل وقالت



ـ أما أنت فلم تعد تريد الآن سوى حسنتك الصغيرة «بيبي»، أليس كذلك؟ تعال وأعطني قبلة، أيها الملاك بدون أجنحة

ضحك عارف الناي هو أيضاً وقال

ـ أرأيت أيها الرجل الصغير؟ قل هذا لـ «دالفا»

ـ رأيت. في الواقع، إنها (يقصد المرأة المحبلة) جلد جاف، مثل عصا يابسة. أجل يا سيدي، يا للعنة الأسود الذي التقطه، أليس كذلك، أيها الرفيق

ـ لا تتكلم عن خطيبتي

أجابه عارف الناي بلهجة جديدة

ثم سارع إلى القول

ـ أتريد أن تشرب كأساً؟ إنه كحول قصب السكر. وهو ممتاز. دخن «القط» وعضت المرأة التي على السرير خديها. واستغرق عارف الناي في الضحك

ـ إنه فرخ حمام صغير، فقط. لا تبالي

وقال «القط»: ومع ذلك، فهذا الجلد اليابس لا يغريني أبداً في الحقيقة، كلا. إنه لا يغريني إطلاقاً

واحتسى «القط» كأس الخمرة المصنوعة من تفل قصب السكر. كان عارف الذي قد تمدد على السرير، وراح يقبل المرأة. ولم يلاحظ العشيقان أن «القط» انصرف، حاملاً محفظة المومس، التي كانت موضوعة على الكرسي، فوق الملابس. وفي الشارع، أحصى «القط» ٦٨ ألف ريس. ووضع النقود في جيوبه وألقى بالمحفظة على الدرج ومضى وهو يصفر نحو بيت «دالفا»

كانت «دالفا» تنتظره في النافذة. وثبت «القط» نظره عليها.

ـ لقد جئت

ودخل دون أن ينتظر الجواب. ومن الرواق، سألته «دالفا»

ـ ماذا قال؟

ـ سأقول لك في الغرفة. دليني على غرفتك

دخلا إلى الغرفة. كان أول شيء رآه «القط» هو صورة فوتوغرافية لغاستون وهو يعزف على الناي، ويرتدي ثوب سموكنغ. وجلس «القط» على السرير، وراح ينظر إلى صورة غاستون. كانت «دالفا» تحدق النظر إليه، مذهولة، واستطاعت بصعوبة أن تسأله مجدداً.

ـ ماذا قال؟

أخذ «القط»

- اجلسي هنا. وأشار الى السرير

وهمست قائلة: هذا الديك الصغير

- اسمعي، يا أرنبي الصغير، لقد أهملك ... وتعلق بامرأة أخرى الشريرة؟ لكني ... ثم سحبت ريش المرمس المحور ودس يده في جيبه، واخرج النقود

- سوف نتقاسم هذه النقود

ها هو مع امرأة أخرى، أليس كذلك؟ لكن سيدي بوتقيم سيجعلهما مشلولين كيف ... قديسي هو سيد بوتقيم انه سيدي

واتجهت نحو صورة القديس، واسمعته اسمه، وعادت

- ... لقد كسبته عن حق

وأردف «القط» قائلاً: اجلسي هنا وعانقها، وألقاها على السرير. ثم راحت تئن من شدة، وتحت وقع الصفعات التي كان يسددها إليها، قالت هامسة

- هذا الديك الصغير هو رجل حقاً

نهض «القط» وسوى سرواله، واتجه نحو الموضع الذي فيه صورة غاستون عارف ... ومزقها

- سوف التقط صورة لي، لكي نضعها هنا، مكان صورة غاستون. راحت المرأة تضحك، وقالت

- تعال الى هنا، يا أرنبي ... ما لك من شقي، ستكون ... سوف اعلمك أشياء كثيرة، يا ديكي الصغير

وقصدت باب الغرفة وخلع «القط» ملابسه

* * *

وهكذا كان «القط» يذهب كل مساء عند منتصف الليل، ولا ينام في المستودع وكان لا يعود إلا في صباح اليوم التالي للذهاب مع صحبه الآخرين للقيام بمغامرات النهار

فغرب «ذو الرجل الرخوة» وقال مرحاً

- ألن سوف تريها الحلم، أليس كذلك؟

- هذا لا يعنيك

كان «القط» يدخن سيجاراً

- هل تريد أن تأتي لترى ما إذا كان يمكن أن تقوم بضربة؟ يا لك من شخص خائب!



- إنني لا أريد تجرب الخلود. إنني أعرف أين أعثر على الأشياء ذات القيمة

لكن «القط» لم يكن يرغب في أن يدردش، وتابع «ذو الرجل الرخوة» جولته في أرجاء المستودع

... «ذو الرجل الرخوة» ... الجدار وترك الوقت يمر. ورأى «القط» يخرج حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف وابتسم لأنه غسل وجهه، ودهن شعره ...، وصار ينتحل مشية ... التي تسمر بها الأشقياء، ولحارة ... إثر ذلك، ظل «ذو الرجل الرخوة» وقتاً طويلاً ينظر إلى الأولاد النائمين. كان هناك حوالي خمسين ولداً، بدون آباء، ولا أمهات وبدون أسياد عليهم. ولم يكن لديهم حرية عدا حرية التسكع في الشوارع. وكانوا يمشون ... دائماً ويعثرون على ما يأكلون وعلى ما يلبسون، ... بعمل حقيقة، أو باختلاس ... أو بتهديد ... الناس ... أحياناً استجداء الصدقة. وكانت الجماعة تضم ما يزيد عن مئة ولد، ذلك لأن كثيرين منهم لم يكونوا ينامون في المستودع، بل كانوا ينتشرون تحت أسوار ... السحب، وتحت جسور ... في الزوارق المقلوبة على رمال مرفأ الخشب، ولم يكن أحد منهم يشكو. وأحياناً كان يموت ولد منهم بمرض لم يعرف علاجه أحد وحين كان يأتي الأب جوزيه بيدرو أو ... دي سانتو دون أنيها ... أو أحياناً ... محبوب من الله الطبيب ... كان المريض يحصل على دواء ... بيد أن تلك الحال لم يكن ... الولد الذي يعيش في بيته. كان «ذو الرجل الرخوة» يفكر فكان يرى أن ... هذه الحرية صغيرة جداً مقابل بؤس هذه الحياة

حين سمع حركة ... في وسط ... كان ينهض شخص ما ... وعرف «ذو الرجل الرخوة» ... الزنجي الصغير ... الذي كان ... خدرة نحو الرمال، خارج المستودع ... «ذو الرجل الرخوة» أن الصبي الزنجي سوف يخبئ شيئاً ما، سرقه، ولم يكن ... صحبه عليه. وكان هذا جريمة ضد قوانين العصابة ... «ذو الرجل الرخوة» ... وهو يشق طريقه بين الصبيان النائمين. كان ... الصغير ... ويدور حول ... من ناحيته ... هناك في ... كان ... ولاحظ «ذو الرجل الرخوة» أن الصبي الزنجي كان يتجه نحو زاوية المستودع الأخرى، هناك حيث كان الرمل أكثر نعومة ... في الاتجاه المعاكس ووصل في الوقت ... يصطدم بشخص ... وقد عرفه على النور. كان هو ... العصابة، وعمره ١٢ عاماً، وهو ولد ... وكسول ... ويستطاع «ذو الرجل

الزحوة » ان يلتقط بعض العبارات. كان احدهما يقول : يا غلامي الصغير ، يا غلامي الصغير ». تراجع « ذو الرجل الزحوة »، وازداد قلقه. كان الجميع يشعرون إلى المداعبة ، وشيئاً غريباً عن هذه الحياة. الاستاذ في كتبه التي كان يقرأها طول الليل ؛ و « القط » في سرير امرأة عاهرة سفق عليه ؛ و « سكر الشعير » في الصلاة التي كانت تعم شكله وهيئته ؛ و « راندو والمبرو في خف ، على رمل الساحل. واحس « ذو الرجل الزحوة » بأن القلق مستول عليه ، وأنه لا يستطيع أن ينام. فلو نام ، فان جميع كوابيس السجن ستعود اليه لتملأ نفسه رعباً. كان يتمنى بشدة أن يظهر شخص ما ، يستطيع هو ، اي « ذو الرجل الزحوة » ، أن يعذبه بأسطورية سمه. وكان يتمنى أن يخوض شجاراً. وفكر لحظة في أن يشعل عود ثقاب على ساق احد الصبيان الراقدين. لكنه حين نظر إلى باب المستودع ، لم يعد يشعر إلا بنعم ، برغبة تحوله في الفرار. وخرج راكضاً عبر الرمال ، ركضاً كيفما اتفق ، هارباً من قلقه. وانقطع بدرو بالا صيحة قريبة جداً منه. ورأى ولداً ينهض ويقترب باحتراس من الزاوية التي كان يرقد فيها « سكر الشعير ». وفي نصف الاغماءة الذي كان فيه ، حسب بيدرو بالا أن الامر يتعلق بجانه لوطي. وظل منبهاً لكي يطرد الغلام المتسلل بنوبات من العصابة ، لأن احد قوانين هذه العصابة كان عدم القبول أبداً بوجود لواطي سلبي في صفوف الجماعة. لكنه استسقط تماماً ، وسرعان ما تذكر أن هذا مستحيل ، ذلك لأن « سكر الشعير » لم يكن من هؤلاء. إذن ، لا بد أن المسألة تتعلق بسرقة. وفعلاً كان الولد قد فتح حقيبة « سكر الشعير ». فانقض بيدرو بالا عليه. كان الصراع سريعاً. استيقظ « سكر الشعير » لكن الآخرين كانوا نائمين.

- هل تعرف بأي صاحب لك غدراً ؟

ظل الآخر صامتاً ، وهو يحك ذقنه المجروحة. تابع بيدرو بالا كلامه قائلاً :

غداً سوف تنصرف من هنا. لم أعد أريدك معنا ، انصرف مع صبيان ايركيل ، الذين يقضون الوقت يسرق بعضهم البعض الآخر.

- كنت اريد فقط ان ارى.

- ماذا كنت تريد أن ترى بحديك ... ؟

أقسم أنني كنت اريد فقط رؤية هذه المدالية التي لديه.

- رتب قصتك كما تشتهي أو انزلت بك عقاباً شديداً.

وتدخل « سكر الشعير » :

- دعه يا بدرو. فكر تماماً أنه كان يريد فقط أن يرى مداليتي. إنها مدالية



اعطاني إياها الاب جوزيه.

- نعم ، هذه هي الحقيقة ، كنت أريد أن اراها فقط.

لكنه كان يرتعش من الخوف. كان يعرف أن حياة مطرود من بين فرسان الرمال تصبح صعبة. فهو إما أن يدخل في عصابة ايركيل التي تقضي اوقاتها في السجون ، أو أنه ينتهي به الامر إلى دخول الاصلاحية.

تولى « سكر الشعير » الدفاع عنه مجدداً ، وعاد بيدرو بالا إلى قرب الاستاذ وجلس قبالة الصبي ، وصوته ما زال مرتجفاً :

- سأقول لك كل شيء لتعرف ، إنها فتاة صغيرة رأيتها اليوم. كانت في مدينة « باي ». وكنت قد دخلت إلى منزلهم لأسرق صدرة ، حين وصلت وسألتني عما أريد. عندئذ رحنا ندردش. وقلت لها إنني في الغد سأحضر لها هدية. لأنها كانت لطيفة. لطيفة جداً معي. هل فهمت ؟

والآن اخذ يصيح بشدة ، حتى ليظن أنه مسعور.

ناول « سكر الشعير » المدالية التي اعطاها له الأب جوزيه ، وراح يتأملها باعجاب وفخامة ، مدها نحو الغلام الصغير.

- خذ اعطها لها. ولكن لا تقل شيئاً سيدرو بالا.

دخل « الكوع الماسي » إلى المستودع في حين كان الفجر يشرق. ونور ابيض يجتاح عماق السماء. وكان شعر خلاسي سيرتاو[٥] منفوشاً نحو الأعلى. وكان يرتدي بحذاء رياضي للرياضة ، مثله يوم نزل من « الكاتنغا »[٦]. وينعكس وجهه القاتم في داخل لمبي. وخطا فوق جسم الزنجي جواو غراندي ، وصعد إلى أبعد ، وأمر رجله بوقه. كان يحمل صحيفة مشدودة إلى صدره. وشمل القاعة كلها بنظرة ، كأنه كان يبحث عن شخص ما. وما أن تبين الموضع الذي يوجد فيه « الاستاذ » حتى أخذ الصحيفة بين يديه الخشنتين الكبيرتين. ودون أن يولي اهتماماً بموقت غير الملائم ، اتجه نحوه صائحاً :

يا « استاذ » يا « استاذ » !

- ماذا هناك ؟

كان الاستاذ شبه نائم.

أريد شيئاً ما.

(٥) سيرتاو : داخل البرازيل

(٦) « الكاتنغا » : منطقة صحراوية في « سيرتاو » ( داخل البرازيل ) مغطاة بالغبار

جلس « الأستاذ » وكان وجه « الكوع اليابس » القاتم غير مرئي تقريباً في الظلام.

- أهذا أنت أيها « الكوع اليابس » ؟ ماذا تريد ؟

- أريد أن تقرأ لي أخبار لامبيو [2] الواردة في « الكوتيديان » (الجريدة اليومية) ويوجد صورة له أيضاً.

- دع الصحيفة لكي أقرأها غداً.

- اقرأها اليوم، وأنا سوف أعلمك غداً كيف تحاكي زقزقة الكناري تماماً.

بحث « الأستاذ » عن شمعة، وأشعلها، وراح يقرأ مقال الصحيفة. لقد دخل لامبيو إلى إحدى قرى ولاية باهيا، وقتل ثمانية جنود، واغتصب عدة فتيات، ونهب خزائن المحافظة. وأضاء وجه « الكوع اليابس » القاتم وانفتح بابتسامة فمه المطبق. كان سعيداً حين ترك « الأستاذ » الذي أطفأ الشمعة متوجهاً نحو زاويته. وأخذ معه الصحيفة لكي يقتطع صورة عصابة لامبيو. وفي روحه كان يتصاعد نهار ربيعي.

* * *

(٢) لامبياو: قاطع طرق برازيلي شهير (ملاحظة من المترجم)



## باب البحر لابورتا دو مار

انتظروا رحيل الشرطي. وتوقف هذا متفحصاً السماء، باحثاً بنظره في الشارع عن القمر، واختفى الترام عند المنعطف. كان هو، في هذه الليلة، آخر ترام على خط بروتاس. أشعل الشرطي سيجارة. وبسبب الريح التي كانت تهب، أشعل هذا ثلاثة عيدان. ثم رفع ياقة معطفه ليقي جسمه من البرد الرطب الذي كانت الريح تحمله من المزارع التي تتأرجح فيها أشجار المانجا والزعرور الأميركي. انتظر الملثمون الثلاثة رحيل الشرطي لكي ينتقلوا إلى الجانب الآخر من الشارع وليدخلوا إلى الدرب المسدود غير المبلط. ولم يستطع « حبيب الله الطيب » الحضور. لقد قضى طوال فترة بعد الظهر في « بورتا دي مار » ينتظر الرجل الذي لم يحضر. ولو حضر هذا الرجل، لكان ذلك سهلاً، ذلك لأنه مع « حبيب الله الطيب » الذي كان يدين له بشيء كثير - لم يكن بحاجة للنقاش. لكن الرجل لم يأت؟ كان أمراً كدناً بالتأكيد. وعلى « حبيب الله الطيب » أن يعود للسفر هذه الليلة بالذات. كان ذاهباً إلى باماريكا، ثم فترة بعد الظهر، نحو أرض صغيرة كانت موجودة في عمق « بورتا دي مار » (باب البحر). كان « القط » يهيء نفسه ليصبح بعد حين مصارعاً قادراً على أن يجابه « حبيب الله الطيب » بالذات.

إن بيدرو بالا، هو أيضاً كان يكشف عن استعدادات كثيرة. رأس الثلاثة رشاقة كان جواو غراندي، لكنه كان ممتازاً في معركة يستطيع أن يستخدم فيها قوته البدنية الخارقة. وحتى في جسمه النحيل، كان على مقدرة كافية للتخلص من خصم أقوى منه. وحين تعبوا، دخلوا إلى الحانة وطلبوا أربعة كؤوس من النبيذ. وأخرج « القط » ورقة نقد من جيبه، وهو ورق نقد مدهش، دون، دون أوراق حشوة. كان « حبيب الله الطيب » يؤكد بأن الرجل سيحضر. إن الرفيق الذي أعلمه النبأ - أي « لحبيب الله الطيب » - كان شخصاً موثوقاً به. كانت هذه الصفقة ستعود بمكاسب كثيرة، و« حبيب الله الطيب » كان ينتظر أن يساعده « فرسان الرمال » أصحابه، الذين هم أقل من عشرين فرداً. كان يعرف أن « فرسان الرمال » هم أفضل من رجال كثيرين

وانهم يحمصون السمر جيداً. كان «باب البحر» مقفراً تقريباً في هذه الساعة. كان هناك فقط بحاران عجوزان لسيرة في داخل الحانة، وهما يدردشان. وضع «القط» ورق لعب على الطاولة وقال:

ـ من الذي يشاركني في جولة؟

تناول «حبيب الله الطيب» ورق اللعب وقال: إنه أكثر من مغشوش بلا شك. حرصه يا صديقي «القط». إنها لعبة مغشوشة تماماً، ومفصوحة تماماً أيضاً.

ـ إذا كان لديك ورق غيره، فهذا سيان بالنسبة لي.

ـ كلا. فلنلعب بهذا الورق.

بدأوا باللعب. كشف «القط» عن ورقتين على الطاولة، وأخذ الآخرون يراهنون على واحدة منهما. وكان يسحب (مال المقامرة) مع الثانية. بادىء ذي بدء، كسب بيدرو بالا، و«حبيب الله الطيب». ولم يشترك في اللعب جواو غراندي (كان يعرف جيداً تلاعب «القط» بالورق)، لكن يكتفي بالمرح، ضاحكاً بكل أسنانه البيضاء حين كان «حبيب الله الطيب» يقول إن الحظ يحالفه هذا النهار لأنه عيد كاسامو. شفيعه كان يعرف من جهة أن الحظ لا يبتسم إلا في البداية، وأنه حين سيبدأ «القط» بالكسب، فلن يتوقف بعد ذلك أبداً. وفي فترة معينة، بدأ «القط» بالكسب. وعند الانتصار الأول، قال بصوت حزين بعض الشيء:

ـ لقد حان الحظ تماماً. إن معي أوراقاً ممتازة وحق الشيطان!

وتّع جواو غراندي ابتسامته أكثر أيضاً. وكسب «القط» كذلك. نهض بيدرو بالا ووضع في جيبه النقود التي كسبها. ونظر «القط» إليه في قلق:

ألن تضع شيئاً أيضاً؟

ـ الآن لا. أنا ذاهب لأتبول.

واتجه نحو عمق الحانة. واستمر «حبيب الله الطيب» يخسر. كان جواو غراندي يضحك. وكان لاعب الكافاكينيو الماهر. وعاد بيدرو بالا، لكنه لم يعد إلى اللعب. كان يضحك مع جواو غراندي. وتخلى «حبيب الله الطيب» عن كل ما كسب، وقال جواو غراندي من بين أسنانه:

ـ سوف يمس الرأسمال.

ولاحظ «القط» قائلاً: ما زلت أخسر. ولاحظ عودة بيدرو فقال له:

ـ ألم تعد تقامر بشيء؟ ألا تراهن على «البنت الساقي»؟

ـ لقد قرفت من المقامرة.



وغمز بيدرو بالا «القط» كأنه يطلب منه أن يكتفي بـ«حبيب الله الطيب». تخلى «حبيب الله الطيب» عن خمسة آلاف «ريس» لصندوق. ولم يكن قد كسب سوى مرتين أثناء الجولات الأخيرة. وبدأ يضجر. ونشر «القط» الأوراق على الطاولة، وبدأ ضاحكاً وسعه. وسأل:

ـ من يلعب؟

لم يجب أحد. ولا حتى «حبيب الله الطيب» الذي كان يراقب الورق بعين حذرة، وسأل «القط»:

ـ هل تعتقد أنه يوجد غش؟ تستطيع أن تنظر إلى اللعب بصورة نزيهة.

بقهقه جواو غراندي في إحدى ضحكاته العصبية. وشاركه في الضحك بيدرو بالا و«حبيب الله الطيب». وألقى «القط» نظرة مسعورة نحو جواو غراندي.

هذا الزنجي يبدد بعض الشيء. فلا ترى إذن.

لكنه لم يكمل عبارته. لأن البحارين اللذين كانا يراقبان اللعب منذ حين اقتربا من الخادم، وهما الأصغر، الذي كان ثملاً. لـ«حبيب الله الطيب»:

هل نستطيع الدخول في هذه اللعبة الصغيرة؟

أشار «حبيب الله الطيب» إلى «القط» قائلاً ـ الصندوق هو مع هذا الفتى.

نظر البحاران إلى الغلام في حذر وريبة. لكن أصغرهما بكر الآخر بكوعه هامساً بشيء كهذا. فرح «القط» في دخيلته، لأنه كان يعلم أن الآخر يقرفه من سهولة الاستيلاء على نقود هذا الولد. وجلس البحاران معاً إلى الطاولة. ودهش «حبيب الله الطيب» لرؤية بيدرو بالا يجلس هو أيضاً إلى الطاولة. ومن جهة أخرى، فإن جواو غراندي ليس فقط لم يدهش، بل إنه جلس إلى الطاولة هو أيضاً. كان يعلم أنه يجب مواجهة البحارين. وأن من الضروري لأجل هذا أن يخسر قبل العصابة هم بعضاً. وبدأ البحاران يربحان، في البداية، كما حدث ذلك لـ«حبيب الله الطيب». لكن راح الحظ يتحول بسرعة وبسرعة كان «القط» هو وحده الرابح. وكان بيدرو بالا يطلق ضحكات متعبة.

ـ هذا «القط» حين يحالفه الحظ، تصعب مواجهته.

ورد جواو غراندي: وكذلك حين يأخذ في الخسارة طوال الليل.

ضد البرد، وحين تأكد منه إلى البحارين حول نزاهة اللعب، وإمكانات الحظ في الفوز. فتابعا اللعب والخسارة. وكان أصغرهما يقول فقط: لا بد وأن يدور الحظ! كان الآخر وهو ذو شارب صغير، يلعب في صمت، وكان في كل مرة يريد

رهانه وبيدرو بالا، هو أيضاً كان يريد قيمة رهانه. وفي لحظة معينة، التفت الرجل ذو الشارب الصغير نحو «القط»:

- هل يسير الصندوق بخمسة آلاف؟

حك «القط» شعره المدهون ببريانتين رخيص، مظهراً عدم تصميم كان رفاقه يفهمون بأنه مجرد شيء شكلي.

- اتفقنا. أنا ألعب لا لشيء إلا لكي أتيح لك تعويض خسارتك.

راهن البحار ذو الشارب الصغير بخمسة آلاف «بيسو». وقدم الصغير ثلاثة آلاف وراهن كل منهم على «آس» مقابل خادم الصندوق. كذلك راهن على الآس بيدرو بالا وخواو غرانديه. وأخذ «القط» يقلب الأوراق. كانت الورقة الأولى سبعة. كان البحار الصغير يدق بأصابعه على الطاولة، والآخر يشد شاربه الصغير. ثم جاءت ورقة «ثمان»، وقال البحار الأصغر:

- الآن، إما ثمان، بعد واحد.

وراح يدق الطاولة بأصابعه.

ولكن جاءت سبعة، ثم عشرة. وحينئذ جاء خادم. وصفق «القط» الطاولة، في حين كان بيدرو بالا يظهر هيئة سأم عميق، وقال:

- غداً، حين سوف يتولى عنك النحس، وسوء الحظ، سترى إذا كنت لن أغلبك.

وعرف البحار الأصغر بأنه خسر كل شيء. وفحص البحار الآخر ذو الشارب الصغير جيوبه.

- لم يعد لدي سوى بضعة «بيسوات» لدفع ثمن البيرة. الغلام لاعب ماهر.

نهض البحاران، وودعا أفراد العصابة، ودفعا ثمن البيرة التي شرباها على الطاولة الأخرى. ودعاهما «القط» للعودة في يوم آخر. فأجاب الأصغر بأن سفينتهما ستبحر هذه الليلة بالذات نحو كاراكاس. فسيعودان عند الإياب فقط. وانصرفا يسب أحدهما حظ الآخر، وهما يعلقان على النحس الذي أصابهما.

وقدر «القط» مبلغ الكسب. وبدون حساب النقود التي خسرها بيدرو بالا وخواو غرانديه، بقي هناك ربح يبلغ ٣٨ ألف «بيسو». وأعاد «القط» إلى بيدرو بالا نقوده، ثم إلى خواو غرانديه. وفكر برهة، ودس يده في جيبه، وأخرج الخمسة آلاف «بيسو» التي كان «حبيب الله الطيب» قد خسرها قبلاً.

- خذ يا أبله. عندك عش. أنا لا أريد أخذ نقودك.



قبل «حبيب الله الطيب» الورقة المالية بسرور، وربت على ظهر «القط».

- سوف تذهب إلى بعيد، يا صديقي. وستستطيع أن تكسب ثروة من ألعاب الغش هذه.

لكن الشمس كانت قد غربت، والرجل المنتظر لم يأت. وطلبوا كأساً أخرى من المسكر. ومع الغروب، ازدادت الريح القادمة من البحر شدة. وبدأ «حبيب الله الطيب» يفقد صبره. وكان يدخن سيجارة وراء سيجارة. وكان بيدرو بالا يرصد الباب. وقسم «القط» الثمانية والثلاثين ألف «بيسو» على ثلاثة، وسأل «خواو غرانديه»:

- كيف سيتدبر «ذو الرجل العرجاء» أمره في سرقة القبعات؟

لم يجب أحد. كانوا ينتظرون الرجل. والآن أصبح لديهم انطباع بأنه لن يأتي. إن السر لم يكن سوى شيء في الحقيقة. ولم يكونوا يسمعون الأغنية القادمة من البحر. كان «باب البحر» (بورت دي مر) مقفراً، ولأن صبيين يجلسان على طاولة، لكن القاعة سوف تمتلئ بعد قليل، وحينئذ لن يكون ممكناً أي اتفاق مع الرجل وسط هذا الجو الصاخب. وهو لن يقبل أية محادثة هنا، في هذه القاعة التي تغص بالزبائن، فممكن أن يتعرف إليه الناس، وهو لم يكن يريد ذلك، كما أن «فرسان الرمال» هم أيضاً لا يريدون. وفي الواقع، كان «القط» لا يعرف حقيقة المسألة، كما لم يكن يعرفها «بيدرو بالا» و«خواو غرانديه». كانا يعرفان فقط ما يعرفه «حبيب الله الطيب» الذي عرضت عليه الصفقة التي قبلها من أجل بيدرو بالا و«فرسان الرمال». وعلى كل حال، فهو نفسه لم يكن يملك سوى معلومات غامضة. وكان ينبغي أن يطلعهم الرجل على معلومات. وقد حدد لهم موعداً في فترة بعد الظهر، في «باب البحر». لكنه حتى الساعة السادسة لم يظهر له أثر. وقد جاء بدلاً عنه الرجل الذي تحدث إلى «حبيب الله الطيب». وقد وصل بالضبط حين كانت العصابة تغادر. وقد أوضح هذا أن الرجل لم يستطع المجيء، لكنه سينتظر «حبيب الله الطيب» في المساء، في الشارع حيث يسكن. وسوف يأتي حوالى الساعة الواحدة فجراً. وأعلن «حبيب الله الطيب» أنه لا يستطيع الذهاب إلى هناك، لكنه يسلم المسألة لـ«فرسان الرمال» ويضعها في أيديهم. وتفحص الوسيط الأولاد بحذر. وسأله «حبيب الله الطيب»:

- ألم يسبق لك أن سمعت الحديث عن «فرسان الرمال»؟

- بلى. قبلاً، ولكن...

- على كل حال، إنهم هم الذين سيتولون المسألة إذن.

بدا الوسيط أنه يوافق، واتفقوا على اللقاء في الساعة الواحدة فجراً، وافترقوا. وعاد «حبيب الله الطيب» إلى سفينته، و«فرسان الرمال» ذهبوا إلى المستودع، واختفى الوسيط في أرصفة الميناء. ولم يكن «ذو الرجل الرخوة» قد عاد بعد. ولم يكن هناك أحد في المستودع. لا بد وأنهم جميعاً منتشرين في شوارع المدينة، بحثاً عن عمل. وخرج ثلاثة في ذلك الحين، وذهبوا لتناول طعامهم في ريستوران رخيص قائم في السوق. وعند خروج المستودع، أراد «القط» المبتهج جداً نتيجة اللعب، أن يفركش بدرو بالا، لكن هذا تلافاه ووقع «القط» على الأرض.

- إنني مدرب، أيها الأحمق الكبير.

ودخلوا إلى الريستوران محدثين ضجة، واقترب منهم في حذر عجوز كان هو المالك. كان يعرف أن «فرسان الرمال» لا يحبون الدفع، وأن هذا الشاب المشطوب الوجه، كان أخطر الجميع. ومع أنه كان هناك أشخاص كثيرون في الريستوران، لكن العجوز قال لهم:

- انتهى كل شيء. لم يعد لدي طعام.

- غير هذه الاسطوانة يا عم، نحن نريد أن نأكل.

وضرب جون غراندي على الطاولة بقبضته وقال:

- وإلا فسنقلب هذه الموائد كلها رأساً على عقب. حدق النادل العجوز فيهم، متردداً. وحينئذ رن «القط» بالنقود على الطاولة.

- اليوم، سنعطي نقوداً.

كانت هذه حجة حاسمة. وبدأ النادل يحضر الأطعمة: طبق من السارباتيل[8] ثم طبق من «الفيجوادا»[9] و«القط» هو الذي دفع ثمن الطعام. وإثر ذلك، اقترح بدرو بالا الذهاب نحو بروتاس، التي كانت تفصلها عنهم طريق طويلة، نظراً لأنهم سيسيرون نحوها سيراً على الأقدام.

وقال بدرو بالا: لا حاجة لركوب الترام. والأفضل أن لا يعرف أحد أننا ذهبنا إلى هناك.

حينئذ قال «القط» إنه سيأتي فيما بعد، وإنه سيلتقيهم هناك. كان لديه ما يفعله قبل ذلك. كان يريد أن يسمع «دالفا» بأنه لن يحضر إليها هذه الليلة.

(٨) سار باتيل: أكلة مقبلات برازيلية مصنوعة من كروش الخنزير وكلاويه.

(٩) الفاجوادا: وجبة وطنية برازيلية مصنوعة من الفاصولياء السوداء، بشحم الخنزير واللحم.



والآن وصلوا إلى هناك، إلى محطة «بيناغيرس»، منتظرين رجل الشرطي. كانوا مختبئين في ظل بوابة كبيرة، ويلزمون الصمت. كانوا يسمعون صوت طيران الخفافيش التي كانت تهاجم على الأشجار حبات الزعرور الأميركي الناضجة. وفي النهاية غادر الشرطي. وبقوا في وضع المترقب حتى اختفى شبحه عند المنعطف. وحينئذ اجتازوا هذا المنعطف، ودخلوا إلى جادة المزارع، حيث اختبأوا تحت سقيفة.

لم يتأخر الرجل البتة. وقد قفز من سيارة تكسي عند زاوية الشارع، ودفع أجرة الركوب، وجاء، صاعداً الجادة. كان يسمع فقط صوت حذائه، وحفيف الأوراق التي يهزها الهواء على الأشجار. وحين اقترب منهم كفاية، خرج بيدرو بالا من تحت السقيفة. وسارع الآخرون للحاق به. وأحاطوه، مثل حراس أقوياء، يعرفون مهمتهم. واقترب الرجل من الجدار، المحاذي لخط سيره. واتجه بيدرو نحوه. وحين وصل إلى مستواه، توقف.

- هل يمكن أن تشعل لي هذه السيجارة أيها السيد؟

كان في يد بيدرو بالا سيجارة مطفأة. لم يجب الرجل بشيء. بل أخرج علبة الثقاب، وناولها للفتى. وأشعل بيدرو سيجارته، وأثناء إشعالها، حدق في الرجل، ثم سأله وهو يعيد إليه العلبة:

- ألست أنت المسمى جوين؟

- وسأل الرجل، لماذا؟

إن «حبيب الله الطيب» هو الذي أرسلنا. واقترب جواو غراندي و«القط»، وحدق الرجل فيهم مذهلاً.

- إنهم مجرد أطفال. والعمل الذي أنا في سبيله، ليس عملاً لأطفال.

- قل لنا ما هو؟ نحن نعرف أن نقوم بعمل مناسب، هكذا رد بيدرو بالا، في حين كان زميلاه يقتربان.

- ولكن ماذا لو كانت المسألة صعبة بحيث أنه حتى الرجال...

ووضع الرجل يده على فمه مثل شخص قال كل شيء لديه، بل وأكثر.

نحن نعرف كيف نحتفظ بالسر، كما لو أنه كان في حريته مولانية و«فرسان الرمال» يفعلون دائماً عملاً متقناً.

- فرسان الرمال؟ هذه العصابة التي تتحدث عنها الصحف؟ أولاد مشردون؟ أهم أنتم؟

- أجل، نحن. ونحن من الذين يقودون أولئك الأولاد.

بدا الرجل كأنه يفكر، وأخيراً قرر موقفاً، وقال: كنت أفضل أن أكلف رجالاً بهذا العمل، ولكن نظراً لأن الأمر يجب أن يجري في هذه الليلة بالذات، فالوسيلة...

- سوف ترى كيف أنا نحسن العمل. لا تقلق.

- تعالوا معي. ولكن دعوني أتقدمكم واتبعوني ولكن على بعد خطوات مني.

طاع الأولاد، وتوقف الرجل المجهول عند حاجز الحديقة، وهدأ برهة ومن بداخل، جاء كلب راح يلحس يديه. وأدخل الرجل ثلاثتهم معاً، واجتازوا معه طريقاً تحف به الأشجار ثم فتح باب المنزل ودخلوا إلى غرفة صغيرة، ووضع الرجل معطفه وقبعته على كرسي، ثم جلس. وظل الفتيان الثلاثة واقفين. وأشار الرجل إليهم بالجلوس، وبادىء بدء راحوا ينظرون في حذر إلى الفوتيلات الواسعة المريحة. ذلك على الأخص، كانت حالة بيدرو وجواو غراندي، ذلك لأن «القط» كان قد جلس على أحد هذه الفوتيلات جلسة مريحة، وإن كان قد حافظ على عبوسه. وبعد إشارة جديدة من الرجل، جلس بيدرو وغراندي، رغم أن جواو غراندي اتخذ جلسة له على حافة المقعد، وكأنه كان يخشى توسيخه. كانت هيئة الرجل مرحة، مداعبة ومحاة... نهض، ناظراً إلى بيدرو، الذي أحس أن الرجل، أنه الزعيم (أي بيدرو).

- إن ما سوف تفعلونه هو صعب وسهل في وقت معاً. والآن، ما يلزم، هو أنه لا يجب أن يعرف أحد بما ستفعلون. لا أحد بالمرة.

أجاب بيدرو بالا، كن مطمئناً. نحن نعرف أن نعمل.

أخرج الرجل ساعته من جيبه، وقال: الساعة الآن الواحدة والربع. إنه لا يعود إلا في الساعة الثانية والنصف.

كان ما يزال ينظر إلى «فرسان نرمال» متردد.

وباغته بيدرو قائلاً:

- إذن، لم يعد هناك وقت طويل. فإذا أردت أن نعمل، فيجب أن نبدأ الآن، فوراً.

حينئذ صمم الرجل:

- بعد شارعين من هذا الشارع، تبدو المزرعة الأخيرة على اليمين. يجب أن تحترسوا الكلب، الذي لا بد وأنه مطلق السراح الآن. وهو كلب شرير. وقاطعه جواو غراندي:

- هل لديك هنا قطعة لحم؟

- لماذا؟



- لأجل الكلب.

- سوف أرى.

كان ينظر إلى الأولاد. كان يتساءل ما إذا كان يستطيع أن يعتمد عليهم.

- سوف تدخلون من العمق وقرب المطبخ، في الجهة الواقعة خارج المنزل، يوجد غرفة فوق المرآب. إنها غرفة الخادم، الذي يجب أن يكون الآن في المنزل، منتظراً عودة سيده. وسوف تدخلون إلى غرفة الخادم وعليكم أن تبحثوا عن رزمة كهذه، كهذه تماماً.

واتجه نحو جيب معطفه، وأخرج منه رزمة صغيرة مربوطة بشريط وردي.

- إنها مشابهة تماماً لهذه. ولا أدري إن كانت هذه الرزمة ما زالت في المنزل. ويمكن أن تكون في جيب الخادم. فإذا كان الأمر كذلك، لن يعود بالإمكان أن نفعل شيئاً.

وبدا أن يأساً مباغتاً قد ألم به.

لو أمكنني أن أذهب بعد ظهر هذا اليوم... إذن، بالتأكيد، كنت سأجد الرزمة في الغرفة. أما الآن فمن يدري؟

وغطى وجهه بيديه.

وقال بيدرو: حتى ولو كانت الرزمة مع الخادم، فنحن نستطيع أخذها.

- كلا. ومن المهم جداً أن لا يعرف أحد أن الرزمة قد سرقت. إن ما سوف تفعلونه، هو إبدال رزمة بأخرى، إذا كانت الرزمة المطلوبة في الغرفة.

- وإذا كانت مع الخادم؟

- حينئذ...

وعاد وجه الرجل مجدداً للاكتئاب. وسمع جواو غراندي باسم يشبه البراءة، ولكن ربما كان هذا وهماً أم بجواو غراندي، الذي كان أحياناً يسمع ويرى أشياء لا يسمع بها ولا يراها أحد. كان الزنجي كاذباً جداً.

- إذن، يجب تغيير الرزمة بنفس الطريقة. ويمكنك أن تطمئن. إنك لا تعرف «فرسان نرمال».

بالرغم من يأسه، ابتسم الرجل من مرجلة بيدرو بالا.

إذن، باستطاعتكم الذهاب، وبعد ذلك، لكن هذا يجب أن يكون قبل الساعة الثانية، عودوا إلى هنا. ولكن فقط حين يخلو الطريق تماماً. وسأنتظركم. وسوف نسوي حينئذ حساباتنا. لكن هناك شيء من واجبي أن أنبهكم إليه بإخلاص. إذا كشف

امركم واعتقلتم، فلا تعرضوني للخطر ولن افعل شيئاً من أجلكم، لأن اسمي لا يمكن أن يظهر في كل هذه المسألة وحاولوا حينئذ اخفاء هذه الرزمة، ولا تتصلوا بي بأية حجة كانت المسألة أن نكسب أو نخسر

رد بيدرو بالا في هذه الحالة يجب تحديد الأجر مسبقاً فكم تدفع؟

– اني اعطي مئة ألف « ريس » ثلاثون لكل واحد منكم، وعشرة زيادة لك، وأشار الى بيدرو

تحرك « القط » على كرسيه فأشار له بيدرو بأن يصمت وقال للرجل سوف تدفع خمسين ألفاً لكل واحد منا، وكما يبدو لي، فإنك تظل رابحاً في هذه الصفقة وهذا يشكل مئة وخمسين ألف « ريس » وإلاّ، فلا رزمة هناك

لم يتردد الرجل البتة ونظر إلى ساعة يده، حيث يركض العقربان

– اتفقنا

حينئذ دفعه « القط »

– ليس ذلك لأننا لا نثق فيك لكن المسألة يمكن أن تفشل، وقد قلت أنت بنفسك انك لن تهتم بما يمكن أن يحدث لنا.

– وبعد اذن؟

– من العدل والحالة هذه أن تعطينا سلفة كبيرة الآن

وأيد جون غرندي « القط » بايمائه من رأسه وردد بيدرو بالا آخر كلمات الآخر

– هذا عدل، نعم اذ كنا لا نستطيع الاتصال بك بعد ذلك

وقال الرجل بدوره نعم هذا عدل

وأخرج من جيبه محفظة، وسحب منها ورقة مالية بمئة ألف « ريس »، وناولها لبيدرو

– والآن اذهبوا بسرعة لقد تأخر الوقت

وخرجوا وقال بيدرو بالا

– لا تهتم بعد ساعة سنعود ومعنا الرزمة

وأمام المنزل (كان الشارع خالياً تماماً؛ وفي احدى النوافذ كان هناك ضوء، وشاهدوا شبح امرأة يذهب ويجيء) وضرب الزعيم جبينه

– لقد نسيت قطعة اللحم لأجل الكلب

نظر بيدرو بالا إلى النافذة المضاءة



– الأمر سيان! كل هذا تفوح منه رائحة الخيانة – الزوجية من دون شك – إن الشخص هناك كان « مرتب » الصغيرة هنا، والآن توجد مع الخادم رزمة الرسائل التي كانا يتبادلانها، وهو يريد استعادتها وهذه الرزمة يفوح منها العطر، وهذا ما يسمي أن يحس به الآخر أيضاً

وأشار الى الاثنين بانتظاره في الجانب الآخر من الشارع، واقترب من بوابة المنزل ومن أن استند اليها، حتى اقترب منه كلب كبير وهو ينبح ورمى بيدرو بالا حبلاً رفعا مزلاج البوابة، في حين كان الكلب يروح ويجيء، نابحاً بصوت خفيض، ثم نادى بيدرو رفيقيه

– أنت (واشار الى « القط ») تبقى هنا، في الشارع لاعطاء الانذار اذا داهمنا احد ما انت، غراندي فتدخل معي

وسبقا إلى ارتفاع الحاجز الصغير للجدار وشد بيدرو بالا على المزلاج بالحبل لرفعه فانفتحت البوابة وكان « القط » قد ذهب إلى زاوية الشارع وحين رأى الكلب الباب مفتوحاً، اندفع نحو الشارع، وتأخر هناك وهو يتفحص عدة قاذورات وقفز بيدرو بالا وجون غراندي إلى أسفل الجدار، وأقفلا البوابة لكي لا يستطيع الكلب العودة إلى المنزل، وتقدما بين الأشجار وفي نافذة المنزل المضاءة، استمر شبح امرأة يروح ويجيء وقال جون غراندي بصوت خفيض جداً

إني اتألم من أجلها

من لديه طلب منها أن تنام مع الآخرين؟

وقف الرجل قرب المنزل لينقل الانذار إلى « القط »، في حالة مداهمة أحد لهم، وكان يستخدم في هذه المناسبات انواعاً خاصة من الصفير ودار بيدرو بالا حول المنزل، ووصل إلى المطبخ كان بابه مفتوحاً، كما كان مفتوحاً أيضاً باب الغرفة المظلمة فوق المرآب بيد أن بيدرو فضل أن يرتقي السلم المؤدي إلى الغرفة، التي نظرة عبر باب المطبخ ورأى بيدرو فيه رجلاً فقال « لا بد أنه الخادم المذكور »، هكذا فكر بيدرو، وبسرعة، ابتعد بيدرو نحو سلم المرآب وصعد على الدرجات أربعاً فأربعاً، ودخل إلى غرفة الرجل لم يكن هناك نور، وأقفل بيدرو الباب، وأشعل عود ثقاب لم يكن هناك سوى سرير، وحقيبة واطفأ عود الثقاب. لكن بيدرو كان قد وصل إلى السرير، الذي بحث فيه بكامله واثر ذلك، نظر تحت الفراش وهنا أيضاً لم يجد شيئاً فعبر حينئذ من السرير واقترب من الحقيبة دون أن يحدث ضجة، ورفع غطاءها، واشعل عود ثقاب امسكه بأسنانه وقام بالبحث في الثياب باحتراس. ولم يجد

شيئاً وصلق عود الثقاب، ثم تذكر أن الرجل ربما كان لا يدخن، فوضع علبة الثقاب في جيبه، واتجه نحو المشجب المثبت في الجدار. ولم يجد شيئاً في الملابس المعلقة على المشجب. وأشعل بيدرو بالا عود ثقاب أخيراً، وقام بتفتيش كل الغرفة.
- من المؤكد أن الرزمة هي مع الرجل. والآن سوف نتحارج.
فتح باب الغرفة ونزل على درجات السلم، ووصل إلى باب المطبخ، كان الرجل ما زال جالساً، وحينئذ، لاحظ بيدرو بالا أن الرجل كان جالساً على الرزمة بالذات، كان طرف منها يبرز تحت ساق الرجل. وحسب بيدرو أن كل شيء قد ضاع. فكيف يستطيع سحب الرزمة من تحت هذه الساق؟ وابتعد عن باب المطبخ واتجه إلى الموضع الذي يقف فيه جواو غراندي. وفكر أن يهاجم الرجل بالاشتراك مع جواو غراندي. ولكن حينئذ ستكون هناك صيحات، وسيطلع الجميع على السرقة والذي استخدم لهذا العمل لم يكن يريد أي شيء مما جرى يحصل هنا. وفجأة خطرت لبيدرو فكرة. واقترب من الموقع الذي ترك فيه غراندي، وهو يصفر بصوت منخفض جداً. وسرعان ما ظهر جواو غراندي. وقال له بيدرو بالا بصوت منخفض جداً هو أيضاً: اسمع يا غراندي. إن الخادم جالس على طرف الرزمة. عليك أن تذهب إلى الباب المؤدي إلى الشارع، وتضغط على الجرس ثم تفر على الفور. ذلك لكي يقف الخادم، وأسرق أنا الرزمة. ولكن أسرع إلى الاختباء بسرعة، بحيث لا يراك الرجل، ولكي يظن أنه رأى حلماً لا حقيقة. اتبع ذلك بوقت للوصول إلى المطبخ.
وعاد بسرعة إلى باب المطبخ، وبعد دقيقة، رن الجرس. نهض الخادم بسرعة، وزرر سترته واتجه نحو مدخل المنزل عن طريق الرواق، حيث أضاء الكهرباء. ودخل بيدرو بالا إلى المطبخ. وقام بتبديل الرزمة، واتجه نحو الزريبة. وقفز عن الجدار، وصفر للـ «القط» ولجواو غراندي. وأسرع «القط» في الحضور. لكن جواو غراندي لم يظهر. وذهب من جهة إلى أخرى. لكن الزنجي لم يظهر أيضاً. بدأ بيدرو يفقد الصبر. خائفاً من أن يكون الخادم قد باغت جواو غراندي. ومن أن يكون الآن يتقاتل معه. لكنه رأى بيدرو بالا، حين مر من هذا الجانب، لم يلاحظ أية ضجة.
وقال: إذا تأخر أيضاً فسوف ندخل.
وصفر مجدداً، ولم يجر أي جواب. وحزم بيدرو بالا أمره.
- سندخل إلى الداخل.
ولكن سرعان ما سمعها صفرة جواو غراندي الذي لم يتأخر عن اللحاق بهما. وسأله بيدرو:



- من حدثت؟
- كان القط، قد أمسك الكلب من مقوده. وأخرجه من الباب الآخر للبوابة وسحب حتى مزلاج الربيع، واختفى في الجانب الآخر من الشارع. في هذا الموضع، أصبح جواو غراندي الموقف.
- حين وضعت إصبعي على الجرس، أصيبت المرأة التي فوق بما يشبه الجنون لكي تصحب هي الساعدة، وقد خيل إلي أنها ستلقي بنفسها منها. كنت أعلم أن هذا يبرر خوف من كانت تبكي وتصحب. حينئذ أحسست بالألم. وتملكت الأسوب لأقول لها أن لا تنتحب، وأنه لم يعد هناك سبب لذلك البكاء، نظراً لأننا سرقنا الرسائل. ونظراً لأنني اضطررت لأوضح لها كل شيء، فقد استغرق ذلك مني بعض الوقت.
وسأل القط مفعماً بالغضب:
- لقد أحسست بالسرور، أليس كذلك؟
- بلى أحسست بالسرور. وقد مسحت بيدها على رأسي، ثم شكرتني. سألت من سمه أن يحميني.
- كف عن الحماقة، أيها الزنجي. سألت فقط إن كانت مسرورة. ولكن فقط من أجل السرير. وإذا كنت قد رأيت ذلك الداعر.
لم يجب الزنجي. ودخلت سيارة في الشارع. وربت بيدرو بالا على كتف الزنجي، وكان جواو غراندي يعرف أن الزعيم يوافق على ما فعل، أي الزنجي. حينئذ صار وجهه بالفرح والاستبشار، وهمس:
كنت أحب فقط أن أرى رأس الخادم حين سيفتح رب العمل الرزمة ولا يجد فيها ما كانا ينتظران.
كانوا قد دخلوا شارعاً آخر، وانطلقوا ثلاثتهم لا يلوون على شيء، مطلقين عاصفة ضحك. هو ضحك «فرسان الرمال» الذي كان بمثابة نشيد شعبي باهيا.

* * *

# أضواء مضمار الخيول الخشبية

لم يكن «المضمار الياباني الكبير» سوى لعبة خيل برازيلية صغيرة تتنقل، بعد جولة عبرية عبر مدن الداخل النائية، عبر ... شهر الشتاء هذه، حين تكون الأمطار تهطل بلا انقطاع، وعيد الميلاد ما زال بعيداً أيضاً. ولشدة ما تآكل لون الجياد الخشبية — وكانا في الماضي أزرق وأحمر، والآن أصبح الأزرق أبيض قذراً، وصار الأحمر لوناً زهرياً تقريباً. ولكثرة القطع التي كانت تنقص الجياد الخشبية، وبعض المقاعد بحيث قرر السيد فراسا، جورجيو فراسا، أن يعرض ألعاب الجياد الخشبية في إيتاباجيبي، وليس في إحدى الساحات المهمة في المدينة، وفي إيتاباجيبي لم تكن العائلات غنية جداً، وهناك كثير من الشوارع الهامشية فقط، وباستطاعة الأولاد الفقراء أن يقدروا تقدير الخيول الخشبية العتيقة الباهتة اللون. وكانت الشدة مثقوبة هي أيضاً. هذا بالإضافة إلى صعوبة هائلة كانت ترغم المضمار على أن يتوقف عرضه على مر ح المطر.

لقد كان هذا المضمار عهده البديع، وكان مفخرة أولاد ماساير في أزمنة ماضية، ذهبت دون رجعة. كان مضمار الخيول الخشبية الملونة يقوم بين جبل روسي ونفق اصطناعي، دائماً في نفس الساحة، وفي أيام الآحاد والأعياد، كان أولاد الأغنياء اللابسين ثياب البحارة، أو أزياء صغار الموردات الأعلير، والبنات الصغيرات بالملابس الهولندية أو بالفساتين الحريرية الناعمة يأتون جميعاً للجلوس على جيادهم المفضلة. وكان أصغرهم سناً يحتلون المقاعد مع مرضعاتهم. وكان أهل الأولاد يذهبون إلى الجبال الروسية الاصطناعية وآخرون كانوا يقصدون النفق حيث يستطيعون حشر النساء، ويجسون سيقانهن ومؤخراتهن في كثير من الأحيان. كان بإمكان ... جورجيو فراسا في ذلك الحين يشكل نعيم مدينة. وأفضل من ذلك كله، هو أنه كان يدر النقود دائماً بصورة لا تكل بأضوائه متعددة الألوان. كان جورجيو يجد الحياة جميلة والنساء جميلات، والرجال يلاطفونه. لكنه كان يرى أيضاً أن المشروب جيد هو أيضاً وأنه يجعل الرجال أكثر لطفاً، والنساء أكثر جمالاً. وهكذا شرب في بدء النفق، ثم الجبل الروسي وأثر ذلك، ونظراً لأنه لم يكن يريد الانفصال



عن مضمار الخيول الخشبية، الذي كان متعلقاً به بشكل خاص، وإلى درجة كبيرة، فقد قام بتفكيكه في أحد الأيام بمساعدة بعض الأصدقاء. وبدأ بارتياد مدن الأعواس وسيرجيب. وخلال هذا الوقت، كان الدائنون يعرفونه بجميع أسماء القصور، التي يعرفونها. لقد كان له ماض جميل، جورجيو فراسا، مع مضمار خيوله الخشبية! وبعد أن ارتاد جميع المدن الصغيرة في الولايتين وبعد أن سكر في جميع خماراتهما، دخل إلى ولاية باهيا. ووصل به الحد إلى إقامته عرضاً لعصابة لامبيار.

كان في قرية فقيرة في داخل البرازيل، وكان يفتقر إلى النقود، ليس فقط لإصلاح نفس مضماره، بل كان لا يجد ما يدفع به أجرة الفندق البائس الذي ينزل فيه، والذي كان الوحيد في تلك البلدة، ولم يكن لديه ثمن كأس واحد من الخمرة، ولا البيرة التي لم تكن دائماً مثلجة، لكنه كان يحبها رغم ذلك. إن مضمار الخيول الخشبية، المقام على كلا ساحة «ماتريس»، كان متوقفاً منذ أسبوع. وكان جورجيو فراسا ينتظر ليلة السبت وبعد ظهر الأحد ليرى إذا كان سيكسب بعض المال للانتقال إلى مكان أفضل. لكن يوم الجمعة دخل لامبيار إلى القرية مع ٢٢ رجلاً، وحينئذ تحمس كثيراً عمل المضمار لهؤلاء الكانغاسيروس [١٠] الكبار، كانوا مثل الأولاد. وهم أي الكانغاسيروس في ذممهم عشرون أو ثلاثون قتيلاً. وجدوا مضمار الخيول الخشبية يحقق متعة لذيذة، وكانوا يرون أن النظر إلى أضوائه الدوارة، وسماع الموسيقى العتيقة للبيانو الآلي التابع للمضمار، وركوب هذه الخيول الخشبية الجرداء، تحقق لهم أعظم متعة وأكبر سرور. إن مضمار جورجيو فراسا قد أنقذ البلدة من النهب والفتيات من الاغتصاب، والرجال من الموت. إن الجنديين التابعين لشرطة باهيا، واللذين كانا يصففان حدثهما أمام مركز الشرطة، قد أعدمهما الكانغاسيروس، وذلك أيضاً قبل أن يرى الكانغاسيروس المضمار المقام على ساحة «الماتريس». وربما، بدون شك كان ممكن أن يغفر لامبيو حتى لشرطة باهيا في ليلة السعادة الكبرى هذه، بالنسبة لعصابة الكانغاسيروس. وأصبح هؤلاء حينئذ مثل الأولاد، وقد قرأوا هذه السعادة التي لم يسبق لهم أن ذاقوها حين كانوا أولاد فلاحين فقراء. امتطاء جواد خشبي، والدوران معه حيث تعزف موسيقى بيانو آلي، وحيث الأضواء متعددة الألوان زرقاء وخضراء وصفراء وبنفسجية وحمراء، مثل لون الدم المتفجر من أجساد من يتعرضون للاغتيال.

هذه القصة هي التي رواها جوزيه لا «ميكروع الناشف»، (والتي جرحته بشدة).

(١٠) الكانغاسيروس: فلاحون فقراء يتحولون إلى قطاع طرق.

وسأل « ذا الرجل الرخوة » في فترة بعد الظهر تلك حين التقاها في حانة « باب البحر » (بورت دي مار) ودعاها لمساعدته في تحريك مضمار الخيول الخشبية، خلال الأيام التي ستقام فيها هذه المضمار في باهيا، بلدة ايتاباجيب، ولم يكن باستطاعته أن يحدد لها أجراً، ولكن ربما استطاع كل منهما أن يكسب زهاء خمسة آلاف رييس كل ليلة. وحين عرض « ذو الكوع الناشف » قدرته على تقليد مختلف أنواع الحيوانات، تحمس جوزجو فرانسا له غاية الحماسة، وطلب من النادل زجاجة بيرة جديدة وأعلن أن « ذا الكوع الناشف » سيظل عند باب المضمار يدعو الجمهور إلى الدخول، في حين أن « ذا الرجل الرخوة » سيساعده على الآلات وسيتكلف أمر البيانو الآلي. وهو نفسه سوف يبيع بطاقات الدخول عند توقف المضمار. وحين يسير المضمار، يكتفي « ذو الكوع الناشف » بالمسألة.

وقال جوزجو وهو يغمز بعينيه: وبين الحين والحين، يخرج لشرب كأس، في حين يقوم الآخر بخدمة الاثنين.

لم يسبق « لذي الكوع الناشف » و « لذي الرجل الرخوة » أبداً أن نقلا فكرة تمثل هذه الحماسة. فقد سبق لهما أن شاهدا مراراً مضماراً للخيول الخشبية. لكنهما كانا يريانه دائماً عن بعد، محاطاً بالأسرار، وجياده السريعة تمتطيها أولاد الأغنياء، السريعي البكاء. بل إن « صاحب الكوع الناشف » قد نجح - في أحد الأيام حين تسلل إلى بارك ألعاب أقيم في متنزه عام - بشراء بطاقة دخول، لكن الحارس طرده من ذلك المكان لأنه كان رث الثياب، وإثر ذلك لم يقبل قاطع التذاكر أن يعيد له ثمن البطاقة، مما دفع « ذا الرجل الرخوة » لأن يستولي على جذور الصندوق الذي كان مفتوحاً ويحتوي على جميع نقود الفرقة. وكان عليه أن يختفي من المنتزه العام بصورة سريعة جداً، في حين كانت تسمع في جميع أرجائه صيحات « إلى اللص، إلى اللص »! وحدث اضطراب وهياج هائلان بل رهيبان، في حين كان « ذو الرجل الرخوة » يهبط بهدوء تام على طريق « غامبوا دي سيما »، حاملاً في جيوبه على الأقل خمسة أضعاف ما دفعه ثمن بطاقة الدخول. لكن « ذا الرجل الرخوة » كان يفضل، قطعاً، أن يدور ممتطياً هذا الجواد الهائل، الذي له رأس تنين، وهو أروع جواد تضمه مجموعة المضمار البديعة. وقد أحس منذ ذلك الحين بالحصار، ازاء رجال الشرطة، وبغض أكبر لمضمار الخيول البعيدة. والآن، ها قد جاء رجل يدفع ثمن البيرة، ويمنحه فرصة معجزة حين يدعوه ليعيش بضعة أيام مع مضمار حقيقي للخيول الخشبية البديعة الألوان، ولأن يتحرك معه، ويمتطي جياده، ويرى عن قرب دوران أضوائه المتعددة الألوان. وبالنسبة « لذي الرجل الرخوة » لم



يكن جوزجو ذلك السكير الذي يجالسه حول مائدة حانة « بورتا دي مار » البائسة، ففي نظره، كان جوزجو يمثل كائناً خارقاً شيئاً مثل الله الطيب الذي يصلي له « سكر الشمير » شيئاً مثل كسامبو، شفيع جواو غرانديي، و « حبيب الله الطيب » ذلك لأنه لا الأب جوزيه بيدرو، ولا (ماي - دي سانتو - دو آنينها) كانا قادرين على اجتراح معجزة كهذه. وفي ليالي باهيا، في ساحة ايتاباجيب، سوف تدور أضواء مضمار الخيول الخشبية بجنون، ويقوم باحيائها وتحريكها « ذو الرجل الرخوة ». كان ذلك كأنما في حلم، حلم مختلف تماماً عن الأحلام التي كان هو « ذو الرجل الرخوة » قد اعتاد أن يراها طوال ليالي قلقة. ولأول مرة، تندت عيناه بدموع لم تكن ناجمة لا عن العذاب ولا عن الغضب. كانت عيناه الرطبتان تتأملان جوزجو فرانسا بسعادة تملأ أجفانه. كان « ذو الرجل الرخوة » مستعداً حتى لذبح رجل بالموسى التي يحملها بين البنطال والكنزة العتيقة السوداء التي كان يلبسها بمثابة سترة.

- هذا شيء بديع ورائع، هكذا قال بيدرو بالا وهو ينظر إلى مضمار الخيول الخشبية الملونة بعد اقامته.

وكان جواو غرانديي ينظر بعينيه لكي يرى بصورة أفضل. وكانت قد علقت مصابيح زرقاء وخضراء وصفراء وحمراء.

إنه قديم ونصل الألوان مضمار جوزجو فرانسا، لكن له جماله. وربما كان هذا الجمال يكمن في أضوائه أو في موسيقى بيانو الآلي العتيق، (فالسات قديمة لأزمنة هاربة)، أو ربما في جياده الخشبية الملونة. ونسيها كان يوجد مكان يجلس فيه الأطفال بمضمار أجمل. لكن له جماله. ذلك لأنه كان هذا هو رأي « فرسان الرمال » مجمعين على أنه جميل جداً ورائع. وما همّ أن يكون عتيقاً ومحطماً، وممحو الألوان، إذا كان يروق للأولاد؟

كانت مفاجأة لا تصدق تقريباً حين وصل في تلك الليلة الى المستودع « ذو الرجل الرخوة »، معلناً أنه هو و « ذو الكوع الناشف »، سوف يعملان بضعة أيام في مضمار للخيول الخشبية الملونة. كثيرون لم يصدقوها. وظنوا أن هذه مزحة جديدة من « ذي الرجل الرخوة ». حينئذ ذهبوا ليسألوا « ذا الكوع الناشف » الذي كان، يبقى كعادته جالساً في زاويته، بلا كلام، يتفحص مسدساً سرقه من محل لبيع الأسلحة. وأيد « ذو الكوع الناشف » هذا النبأ بإيماءة من رأسه. وكان يقول بين الفينة والفينة

بعد ركب الأسياد أحد هذه الخيول. معلناً أن الأستاذ هو عربي

ودعاهم « ذو الرجل الرخوة » جميعاً لأن يذهبوا ويشاهدوا مضمار الخيول الخشبية

في الليلة القادمة، بعد أن تتم اقامته. ثم ذهب لملاقاة جوزيتو ترانسيتو في تلك اللحظة، فمن جميع القلوب الصغيرة التي كانت تنبض في المستودع قد غطت «ذا الرجل الرخوة» على سعادته الكبرى، وحتى «سكر الشعر» الذي كانت لديه صور قديسين على جدرانه وحتى جوزيه عراندي الذي كان من المقرر أن يذهب هذه الليلة بالذات مع «حبيب قلبه الطيب» إلى رقص الكاليدونية في بروكوبيو، في بلدة ماتونزو وحتى «الاستاذ» بالذات، الذي كان يقول كثيراً، ومن يدري ما اذا كان بيدرو بالا هو أيضاً، هو الذي لم يكن يحسد احداً أبداً لأنه كان زعيمهم جميعاً. أجل، جميعهم حسدوا «ذا الرجل الرخوة»، كما حسدوا «ذا الكوع الناشف» الذي كان جالساً في زاويته، وشعره المتناثر الاشعث بدون تسريح، وعيناه مفتوحتان نصف فتحة، وفمه فاغر قليلاً في تكشيرة غضب، وهو يشهر مسدسه اما على واحد من الصبيان، واما على جرذ يمر قربه، أو على النجوم التي كانت كثيرة جداً في السماء.

وفي الليلة التالية، ذهبوا جميعاً مع «ذي الرجل الرخوة»، و«ذي الكوع الناشف» (كان هذان الاخيران قد قضيا النهار في الخارج يساعدان جوزيتو في اقامة مضمار الخيول الخشبية) لمشاهدة هذا المضمار بعد اقامته. كانوا واقفين امامه، وقد حلت البابهم حياله، وقد فغرت افواههم لفرط الاعجاب. وكان «ذو الرجل الرخوة» يبين بالتفصيل كل جمالات المضمار. وكان «ذو الكوع الناشف» يصحبهم واحداً واحداً لكي يتأملوا باعجاب الجواد الذي امتطاه عرابه، فيرغوليو فرنسو لامبيدو. وكان هناك زهاء مئة من الاولاد الذين وقفوا يتأملون مضمار جوزيتو ترانسيتو، الذي كان في تلك الساعة، يسكر سكرة هائلة في حانة «لابورتا دي مار» («باب البحر»)

قام «ذو الرجل الرخوة» باطلاعهم على الآلة (وهي محرك صغير كان كثيراً ما يتوقف عن العمل) باعتزاز المالك. ولم يعد «ذو الكوع الناشف» يترك الحصان الذي امتطاه لامبيدو. وكان «ذو الرجل الرخوة» يعنى عناية كبيرة بمضمار الخيول الخشبية، ولم يكن يسمح لاحد بأن يمسها أو يحركها مهما كان السبب.

حينئذ سأل «الاستاذ»:

- هل أصبحت تعرف تشغيل الآلات؟

- غداً سوف اعرف ذلك. هكذا اجاب «ذو الرجل الرخوة»، ببعض الاستياء، وقال: غداً السيد جوزيتو سوف يعلمني ذلك.

- اذن غداً، بعد أن تنهي عملك، تستطيع أن تدير مضمار الخيول الخشبية لأجل الاصدقاء وحدهم. انت ستفعل ما ينبغي لتسيير المنظومة، ونحن نجلس للفرجة



سنجد بيدرو بالا ابتكر بحماسة. وكان الاخرون ينتظرون بقلق جواب «ذي الرجل الرخوة». ومد الأخير فمه. وحينئذ صفق العديدون، وأطلق آخرون صيحات. في هذه اللحظة، ترجل «ذو الكوع الناشف» عن الحصان الذي سبق أن امتطاه لامبيدو، وأقبل («ذو الكوع الناشف») نحوهم

- هل تريدون أن تروا شيئاً جميلاً؟

كان الجميع يريدون ذلك، صعد السيرتانيجو[11] إلى المضمار، وشغل البيانولا، وأسمعهم انغام رقصة فالس من أيام زمان. كان وجه «ذي الكوع الناشف» القاتم ـ يضيء بابتسامة. كان يشغل البيانو الآلي، ويراقب الاولاد المأخوذين بالفرح. كان هؤلاء يصغون بحرارة إلى موسيقى التي كانت تتفجر من بطن مضمار الخيول الخشبية، في سحر ليل البهيا، وذلك فقط من أجل آذان «فرسان الرمل» مغامرة والشقية. كان الجميع صامتين. واقترب منهم عامل كان يمر في الطريق، حين رأى تجمع الاولاد على هذا النحو. هو ايضاً لبث ساكناً بلا حراك وهو يصغي إلى هذه الموسيقى القديمة. حينئذ عم ضوء البدر الجميع، وزادت لمعان النجوم في السماء، وزاد هدوء البحر، ولعل ميرة البحر ايامنجا جاءت هي ايضاً لسماع الموسيقى). ولم تعد المدينة سوى مضمار كبير كان يدور عليه على خيول غير مرئية «فرسان الرمال». في هذه اللحظة الموسيقية، أحسوا هم بأنهم سادة المدينة. وأحب بعضهم بعضاً، وأحسوا بأنهم اخوة. لأن الجميع كانوا معاً محرومين من الحنان والرعاية، والآن اصبح لديهم حنان الموسيقى ورعايتها. ومؤكد تماماً أن «ذا الكوع الناشف» لم يكن الآن يفكر في لامبيدو. وبيدرو بالا لم يعد يفكر في اليوم الذي سيصبح فيه زعيم جميع المالاندروس[12] في المدينة، وكف «ذو الرجل الرخوة» عن التفكير في الارتماء بالبحر حيث جميع الاحلام جميلة. لأن الموسيقى كانت تتفجر من بطن مضمار الخيول الخشبية القديم، لهم وحدهم، وللعامل الذي وقف يصغي إلى الموسيقى. وكانت هذه الموسيقى رقصة فالس قديمة وحزينة، ولحناً منسياً لرجال المدينة

* * *

(11) السيرتانيجو: واحد من اهل سيرتاو

(12) شبان دفعهم الفقر إلى تكوين عصابات من قاطعي الطرق واللصوص، الحاملين مع ذلك قيثارات للرقص والغناء

- ملاحظة من المترجم -

كان أشخاص يتوافدون من جميع الشوارع المجاورة مساء كل سبت عصراً، ممن يذهب الرجال إلى عملهم. وهذه الليلة يستطيعون التأخر في الطرقات. كثيرون منهم عمال الخدمات وكانت حالة «تحت الصفر» تعني التشرد. لكن الذين لديهم أولاد جاؤوا معهم إلى الساحة المبتلة بالإضاءة وكأنها تعويض. كانت هنا أضواء مضمار الخيول الخشبية الدوارة. كان الأولاد ينظرون إلى الأضواء والخيول ويصفقون بأيديهم فرحاً. وعند الباب، كان «ذو الكوع الناشف» يطلق صرخات حيوانات ويدعو الجمهور إلى الدخول. وكان يحمل جعبة خرطوش كأنه يصطاد في براري سرناو. لقد اعتقد مهرمهو أن هذا يستلفت انتباه الناس. وكان «ذو الكوع الناشف» يشبه حقاً الكاسسيرو، بقبعته الجلدية، وجعبته الصيادية. وراح يحاكي صيحات الحيوانات حتى اجتمع حوله رجال ونساء وأولاد. وحينئذ جعل يعرض بطاقات للدخول كان الآخرون يشترونها. كانت البهجة والفرح يعمران الساحة بأسرها. وأضيء مضمار الخيول الخشبية ببهجة الجمع. وفي الوسط، كان «ذو الرجل الرخوة» مقرفصاً يساعد مهرمهو فرنسيس في تشغيل المحرك. والمضمار يدور مثقلاً بالأولاد. والبيانو الآلي يطحن ألحانه القديمة، و«ذو الكوع الناشف» يبيع بطاقات الدخول.

وفي الساحة، كان أزواج العشاق يتنزهون وبنات مارل يشترين قطع الحلوى (الاسكيمو)، والشرابات، وكان شاعر جالساً قرب البحر، ينشد قصيدة طويلة يغني فيها أضواء المضمار وبهجة الأطفال. كان مضمار الخيول الخشبية يضيء الساحة وجميع الثقوب. وفي كل عطلة، كان ناس يصلون من الشوارع والزواريب. و«ذو الكوع الناشف» يحاكي أصوات الحيوانات وهو يلبس لباس الكاسسيرو. وحين كان المضمار يتوقف عن الدوران، كان الأولاد يتدافعون مبرزين بطاقات الدخول، وكان من الصعب كبحهم. وحين كان أحدهم لا يجد مكاناً له، كانت ملامح وجهه تكتسي زعلاً محروماً، في حالة قريبة من اليأس، ويظل واقفاً ينتظر دوره بفارغ الصبر. وحين يتوقف مضمار الخيول الخشبية. كان ممتطو الجياد يرفضون النزول. كان يتوجب حينئذ أن يصرخ «ذو الرجل الرخوة» بهم

ـ هيا، انزلوا! هيا، انزلوا! أو اشتروا بطاقة ثانية.

كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لجعلهم يغادرون الجياد الخشبية القديمة، التي لم تكن تتعب أبداً من السباق الأبدي. وكان غيرهم يركبون المطايا، ويستأنف السباق، وتدور الأضواء، وتنصهر جميع الألوان في لون واحد غريب، والبيانو الآلي يصب أنغامه القديمة.



وكان على المقاعد الخشبية البسيطة أيضاً أزواج من العشاق، وهم، ومضمار الخيول الخشبية الملونة يدور في بهجة ورشاقة شعبية، يتبادلون همساً كلمات الحب. بل كان هناك عشاق ومعشوقات يتبادلون قبلات شبه مختلسة حين يتوقف المحرك فجأة، وتنطفئ الأنوار. حينئذ كان مهرمهو فرنسيس و«ذو الرجل الرخوة» يعكفان على المحرك ويفحصانه لعطل حتى يستأنف الدوران، متلافين احتجاجات الأولاد. لقد أصبح «ذو الرجل الرخوة» يعرف جميع أسرار المحرك.

وفي عطلة ما، كان مهرمهو فرنسيس يرسل «ذا الرجل الرخوة» ليحل محل «ذي الكوع الناشف» في بيع بطاقات الدخول، ويتيح لـ «ذي الرجل الرخوة» فرصة لامتطاء أحد الجياد الخشبية. وكان الغلام الصغير يختار الحصان الذي سبق أن امتطاه لامبياو. وكان طوال وقت الدورة، يمضي فاغراً كأنه يمتطي جواداً حقيقياً. وكان يسدد بندقية وكأنه سيطلق النار على الأولاد الذين أمامه، وكان يراهم في مخيلته ينقلبون في بركة من الدم، تحت صفقته المسكرة. وكان الجواد يعدو، وتزداد سرعته باستمرار. لكن الغلام كان يقتلهم جميعاً لأنهم كانوا في نظره جنوداً أو مزارعين أغنياء. وإثر ذلك، كان يمشي على مقعد جمع لبناء المساواة، وينهب القرى والمدن، وقطارات السكك الحديدية، راكباً صهوة جواده، ومشهراً بندقيته.

وإثر ذلك، يأتي دور «ذي الرجل الرخوة». كان يذهب إلى جواده الخشبي الأزرق أو الأحمر، وهو صامت، كان بانفعال غريب يستولي عليه. كان يمضي كما يذهب المؤمن إلى القداس والعاشق إلى صدر امرأته المحبوبة، والبائس نحو الموت. كان يمضي شاحباً، أعرج، ويمتطي جواداً أزرق، يحمل ثلاثة نجوم على كتفه الخشبية. كانت شفتاه مزمومتين، وأذناه لا تسمعان موسيقى البيانو الآلي. كان يرى فقط الأنوار التي تدور معه، وكان يتعلق بيقين في داخل نفسه بأنه في مضمار من الخيول الخشبية تدور في دائرة، مثل جميع هؤلاء الأولاد الذين هم أب وأم ومنزل، وأشخاص يقبلونهم، وكائنات تحبهم. كان يتصور أنه منهم، ويغمض عينيه لكي يحتفظ بصورة أفضل بهذا اليقين. وهو لم يعد يرى الجنود الذين أوسعوه ضرباً، والرجل لابس النظارة الذي كان يضحك. لقد قتلهم «ذو الكوع الناشف» في ركوبه. و«ذو الرجل الرخوة» ينطلق على جواده مهماز ثابت الجنان. كان يحس وكأنه ينطلق طائراً على موج البحر، صاعداً نحو النجوم، في أروع رحلة في العالم وأكثرها إثارة للدهشة. رحلة لم يسبق لـ «لامبياو» أبداً أن قرأ مثلها ولا تخيلها. كان قلبه ينبض بقوة، بقوة إلى حد أنه شد عينيه بيده.

في تلك الليلة، لم يأت «فرسان الرمال». وليس فقط لأن نشاط المصير على الساحة انتهى في وقت متأخر (في الساعة الثانية فجراً كانت الجياد ما زالت تدور)، بل أيضاً لأن العديد من أفراد «الفرسان»، من بينهم بيدرو بالا، و«الشارب الخطيف»، وباراندا، و«الأستاذ»، كانوا منشغلين بشؤون مختلفة. وقد تم اتفاقهم، بالنسبة لليوم التالي، على الالتقاء حوالى الساعة الثالثة أو الرابعة صباحاً. وسأل بيدرو بالا، «ذا الرجل الرخوة»، إذا كان قد أصبح يعرف تشغيل المحرك، وقد أوضح بيدرو قائلاً:

- لا فائدة في أن تلحق الأذى بعملك.

- لقد أصبحت أعرف كل شيء عن ظهر قلب، وعلى أطراف أصابعي. إنه نموذج للعمل المنهك. وسأل «الأستاذ»، الذي كان يلعب الضامة مع جواو غراندي:

- ألا ترى أنه سيكون من المناسب، أن «نعطف» رجالنا إلى الساحة، بعد ظهر اليوم؟ من يدري، قد يكون هناك ما يستحق أن نذهب؟

قال بيدرو بالا: أما من جهتي سأذهب. لكني أعتقد أننا لا نستطيع أن نذهب إلى هناك بعدد كبير. فالجماعة يمكن أن يحتاروا لدى رؤيتهم عدداً كبيراً منا، دفعة واحدة.

- يقول «القط» إنه لن يذهب في فترة بعد الظهر. إنه مشغول. ثم إنه سيكون منهمكاً ليلاً في مصير الخيول الخشبية.

فقال «ذو الرجل الرخوة» ساخراً:

- ألا نستطيع أن نقضي يوماً بدون أن تحرك به حديثك مع تلك المومس. ما قوتك؟ سيكون مصيرك تعساً يا صديقي.

لم يجب «القط». إن جواو غراندي هو أيضاً لن يذهب في فترة بعد ظهر اليوم. إذ إنه قد قرر أن يمضي مع «حبيب الله الطيب»، لكي يذهبا لتناول الطعام عند دونا أنينيا الأمي دي سانتو. وفي النهاية، تقرر أن يذهب فريق صغير ليعمل في الساحة. ويستطيع الباقون أن يذهبوا حيثما شاؤوا. وفي الليل فقط، سوف يجتمعون كلهم لامتطاء خيول المصير الملونة. وقال «ذو الرجل الرخوة» محذراً:

- يجب إحضار البنزين، إنه الشيء للمحرك. وقام «الأستاذ» (كان قد كسب ثلاث جولات من جواو غراندي) بجمع نقود من رفاقه لشراء ليترين من البنزين.

- سأحضر البنزين.

ولكن في فترة بعد ظهر يوم الأحد جاء الأب جوزيه بيدرو، الذي كان من الأشخاص النادرين جداً الذين يعلمون أين هو الملجأ الأكثر دواماً لـ«فرسان الرمال». وقد ربط الأب جوزيه بيدرو معهم عرى الصداقة منذ زمن طويل. وهذه



الصداقة نشأت بواسطة «الشارب الخطيف»، أحد صبيان العصابة. وكان هذا الأخير، قد تسلل يوماً، بعد القداس، إلى موهف[13] (سكرستيا) إحدى الكنائس حيث كان الأب جوزيه بيدرو يقوم بالخدمة المقدسة. وكان «الشارب الخطيف» قد دخل إلى هناك لمجرد الفضول قبل أي شيء آخر. هذا الغلام لم يكن من الذين يهتمون كثيراً بشؤون الحياة ويسعى إلى الرزق. كان يحب ترك الوقت يمضي، دون أن يكلف نفسه رهقاً. كان على الأخص، طفيلياً في الجماعة. وفي بعض الأيام، حين يشاء هواه، كان يسعى إلى أحد المنازل، ويجد منه شيئاً ثميناً، أو ينشل ساعة شخص ما. ولم يكن يقوم أبداً، تقريباً بتسليم ما يسرق ممن اعتادوا أخذ الأشياء المسروقة، بل كان يحضره، ويسلمه إلى بيدرو بالا، كحصة إسهام منه في حياة الجماعة. وكان له أصدقاء كثيرون من حمالي الميناء، وفي مختلف منازل الفقراء في مدينة القش، وفي مواضع عديدة من ولاية باهيا. وكان يأكل على مائدة هذا، ثم على مائدة ذاك، من الناس. وبصورة عامة، لم يكن يشعر بأنه أحد. وكان يكتفي بالنساء اللواتي يزدن عن حاجة «القط». وكان يعرف، أفضل من أي شخص آخر، المدينة وطرقاتها، والمواضع الأكثر إثارة للفضول، وأماكن الاحتفالات والأعياد، حيث يذهب ليشرب ويرقص. وحين كان يقضي بعض الوقت لم يساهم فيه بشيء ثمين في التنظيم الاقتصادي للجماعة، كان يبذل جهداً وينصرف يبحث ليحصل على شيء يعود بالنقود، ويسلمه إلى بيدرو بالا. لكنه، في الحقيقة، لم يكن يحب أي نوع من العمل، شريفاً كان أو غير شريف. وما كان يحبه هو أن يتمدد على رمال الشاطئ، ساعات وساعات، يرصد الشمس، أو البقاء متفرجاً فترات كاملة ما بعد الظهر على أبواب حوانيت الباعة، مصغياً إلى قصص البحارة التي يرويها عمال أو صيادون. كان يرتدي الأسمال الرثة، ذلك لأنه لم يكن يغير ملابسه إلا حين تسقط خرقاً ممزقة. كان يحب التسكع في طرقات المدينة، أزقتها وشوارعها، والدخول إلى بعض الحدائق لتدخين سيجارة، أو إلى إحدى الكنائس لتأمل جمال الذهب العتيق، متشرداً عبر الطرقات المبلطة بحجارة كبيرة سوداء.

في ذلك الصباح، حين رأى الناس خارجين من القداس، دخل إلى الكنيسة دون سرور. وشق طريقه نحو الموهف (السكرستيا) وراح يتفحص كل شيء، المذابح، والقديسين، ووقف يسخر من صورة تمثل قديساً أسود، القديس بنديكتو الأسود. لم يكن يوجد

(١٣) موهف (سكرستيا): مكتب موضع فيه ثياب الكنيسة، وحيث يرتدي الكهنة ملابسهم الكهنوتية. - ملاحظة من المترجم -

أحد في موقعه، ورأى حلية ذهبية يمكن أن تدر نقوداً كثيرة. وألقى نظرة الحيرة حوله، فلم ير أحداً. مد يده لكن شخصاً لمس كتفه، كان الأب بيدرو قد دخل.

- لماذا تفعل هذا يا ولدي؟ هكذا سأله الخوري باسماً، في حين كان يسحب من يد «الشارب اللطيف» الذخيرة الذهبية.

- كنت أنظر إليها فقط، يا أبت. إنها طريفة. هكذا أجاب «الشارب اللطيف» بعد بعض الخوف. وأردف: نعم، إنها طريفة تماماً. لكن لا تظن أني كنت سأسرقها. بل كنت سأتركها هنا. هكذا، كما هي. إنني من عائلة محترمة.

ألقى الأب حوزيه بيدرو نظرة سريعة على أسمال «الشارب اللطيف»، وأغرق بالضحك. ونظر «الشارب اللطيف» هو أيضاً إلى أسماله الرثة.

- هذا لأن والدي قد توفي، في الحقيقة. لكنني كنت أدرس في كنيسة. أنا أقول الصحيح. ولماذا أسرق هذه الحلية؟

وأشار إلى الذخيرة الذهبية وأضاف:

- وفي كنيسة أيضاً. أنا لست وثنياً.

ابتسم الأب حوزيه بيدرو مجدداً. كان يعرف تماماً أن «الشارب اللطيف» يكذب. منذ زمن طويل كان الخوري ينتظر فرصة تمكنه من الاتصال بالأولاد المشردين في المدينة. كان يعتقد أن الرسالة المناطة به هي هذه: مساعدة الأولاد المشردين. وكان قبلاً قد زار مراراً دور الإصلاحيات، لكن المسؤولين عن تلك الدور كانوا يضعون أمامه عقبات وحواجز من كل نوع، لأنه لم يكن يوافق على رأي المدير القائل بأن أفضل وسيلة لإصلاح ولد ارتكب ذنباً هي ضربه بلا هوادة. ومنذ زمن طويل كان الأب حوزيه بيدرو يسمع الأحاديث عن «فرسان الرمال»، ويحلم بالاتصال بهم. ولئن يتمكن من هدي جميع هذه القلوب إلى الله. كانت لديه رغبة شديدة جداً بالعمل مع هؤلاء الأولاد، ومساعدتهم على أن يكونوا أخياراً. لذلك، عامل «الشارب اللطيف» بأفضل ما يستطاع. ومن يدري، فربما بواسطة هذا الغلام يصل إلى «فرسان الرمال»؟ وهكذا كان.

في الاكليروس، لم يكونوا يعتبرون الأب حوزيه بيدرو كبير الذكاء. بل لقد كان أحد أكثر مجموعة كهنة باهيا تواضعاً. وفي الواقع، فقبل أن يدخل إلى المدرسة الاكليركية، كان الأب حوزيه عاملاً، لمدة خمس سنوات، في مصنع أقمشة. وقد قرر مدير المصنع، في أحد الأيام، عند زيارة مطران هذا المصنع، أن يقدم دليلاً على



سخاء نفسه فأعلن بأنه، نظراً لأن سيدنا المونسنيور يشكو من قلة الدعوات[1] الربانية، فإنه أي صاحب المصنع، مستعد لأن يدفع نفقات تعليم طالب في مدرسة اكليركية، أو نفقات طالب آخر يريد أن يدرس ليصبح كاهناً. عندئذ، اقترب جوزيه بيدرو، وكان يعمل على النول، وقال إنه يريد أن يصبح كاهناً. كانت هذه مفاجأة لرب العمل وللمطران على حد سواء. إن حوزيه بيدرو لم يعد شاباً، ولم تكن لديه أية ثقافة. لكن رب العمل، لم يكن يريد، أمام المطران، أن يسحب كلامه.

وذهب حوزيه بيدرو إلى المدرسة الاكليركية وجعل تلامذتها يسخرون منه، ولم ينجح أبداً في أن يكون تلميذاً مجتهداً. كان سلوكه جيداً، بالتأكيد، ومن أتقى التلامذة، ومن الذين يرتادون الكنيسة أكثر من سواهم. ولم يكن يوافق على كثير من الأمور التي تحصل في الدير. ولأجل هذا كان التلامذة يضطهدونه. ولم يكن يستطيع فهم أسرار الفلسفة، واللاهوت، واللغة اللاتينية. لكنه كان ورعاً تقياً، وكان يرغب في تعليم مبادىء الدين للأولاد وللهنود الحمر. وقد عانى كثيراً من الآلام والعذاب، وعلى الأخص حين توقف صاحب المصنع، بعد سنتين، عن دفع نفقات دراسة حوزيه بيدرو. فاضطر هذا الأخير أن يعمل خادماً في الدير لكي يستطيع الاستمرار. لكنه استطاع أن يسام كاهناً فجرى إلحاقه بإحدى كنائس العاصمة في انتظار الخورنية (قرية يخدمها كاهن). ومع كل ذلك، فقد كانت رغبته الكبرى هي أن يعلم الأولاد المشردين في المدينة مبادىء الدين، هؤلاء الصبيان الذين كانوا بلا أب، ولا أم، ولا مرشد ويعيشون على السرقة، معرضين لجميع الآثام والآفات. كان الأب حوزيه بيدرو يريد أن يهدي جميع هذه القلوب إلى الله. وهكذا راح يرتاد دور الإصلاحيات، حيث استقبله المدير، بادىء بدء، بلطف كبير. ولكن حين أعلن الكاهن أنه ضد العقوبات الجسدية، وضد عدم ترك الأولاد فرصة للخروج طوال أيام، حينئذ تغير الوضع، وسارت الأمور بطريقة أخرى. وفي هذا الصدد، اضطر الكاهن في أحد الأيام للكتابة رسالة إلى هيئة تحرير إحدى الصحف. ومنذ ذلك الحين، مُنع (بضم الميم وكسر النون) الأب حوزيه من دخول دار الإصلاحية. بل وقد جرى توجيه شكوى ضده إلى مقر الأبرشية. وبسبب كل هذا، لم يتمكن من أن يكون له رعايا مباشرون، مع أنه كان يحس برغبة شديدة وكبيرة في التعرف إلى «فرسان الرمال»، إلى مشكلة الأولاد

(1) الدعوة الربانية Vocation أو الإرشاد الرباني. وهو نداء باطني (شعور الانسان بأنه مدعو للقيام بعمل اجتماعي أو ديني خاصة). ـ ملاحظة من المترجم ـ

القاصرين والجائعين، حتى لم يكن لهم أحد يقربهم في المدينة. كانت أكبر هموم الأب جوريه بيدرو أنه كان يريد مقاربة هؤلاء الأولاد، ليس فقط لهديهم إلى الله ولكن أيضاً لكي يرى ما إذا كان ثمة وسيلة ما، لتحسين حياتهم. كان يعود الأب جوريه بيدرو صغيراً، ولم يكن لديه أي تأثير ولم يكن يعرف أبداً ماذا يفعل لكسب ثقة هؤلاء اللصوص الصغار. لكنه كان يعلم أن حياتهم فاقدة لأي رفاه، ولأي حنان. حياة جماعة المشردين. وإذا كان الأب جوريه ليس لديه سرير ولا طعام ولا ملابس يقدمها لهم، فقد كان لديه على الأقل كلمات عطف. وسيتأكد كثير من حب في قلبه يعطيهم إياه. في البدء، أخطأ الأب بيدرو في خطته وهي عظتهم، مقابل التخلي عن الحرية التي يتمتعون بها. وهم متروكون في الشارع، مكانه حياة أكثر راحة ورفاهاً. كان الأب جوريه بيدرو يعلم جيداً أنه لا يستطيع توجيه هؤلاء الأولاد نحو دار الإصلاحية. فقد كان يعرف جيداً الفرق بين دار الإصلاحية، والمواخير المكبوتة والأخرى التي يجري تصفيقها. وكان يعلم جيداً أنه لم يكن هنالك أي مكان لولد دخل الإصلاحية لأن يصبح طيباً وشغيلاً. لكن الكاهن كان يعتمد على بعض صداقته وعلى بضع تقيات، من المترهبنات، وكريمات النفوس. كان في استطاعتهن كفالة عدة أولاد من «فرسان الرمال» في بيوتهن وإطعامهم. لكن من أخفى كان يعني أن ينحل هؤلاء الصبيان عن كل ما يشكل عظمة حياتهم: مغامرة الحرية في شوارع أكثر مدن العالم أسراراً وأجملها، الشوارع الباهية جميع القديسين. وبعد أن أقام الأب جوريه بيدرو بواسطة «الشارب الطيب» علاقات مع «فرسان الرمال»، أحس بأنه لو عرض عليهم ذلك الاقتراح، فسوف يفقد كل الثقة التي وصل إليها منهم، وأنهم سيغيرون مقرهم، وأنه لن يراهم أبداً بعد ذلك. حتى في الحقيقة، أنه لم يكن لديه هو أيضاً ثقة مطلقة في هذه العوانس البنات المتنسكات اللواتي كن يمضين حياتهن مدمنات في الكنيسة واللواتي يغمسن قرب ماء القداديس لكي يخضن في الحديث عن حياة الآخرين. وهو يذكر أنه في البدء حرج مشاعرهن حين اقتربت منه، إثر انتهاء أول قداس أقامه في هذه الكنيسة، مجموعة من التقيات المترهبنات. كان واضحاً أنهن يردن مساعدته في خلع ثياب خدمة القداس، وثرثرن حوله صيحات بعجب وحنان:

- يا المحترم الصغير ... أنه كملاك جبريل

واقتربت منه عجوز، نحيفة جداً، وشبكت يديها كما عند العبادة وقالت:

- يا صغيري يسوع المسيح المعبود

كن يبدو أنهن يصلين له، بل يعبدنه. فثار الأب جوريه بيدرو. وفي الحقيقة،



كن يعلمن أن غضب الكاهن، لم يكن يوقفهن هذه الوقفة تجاهه. بل كانوا يحصلون على هدايا كثيرة من الشراريب والبيوت الغنية، والملابس المطرزة، بل وحتى ساعات ذهبية سوداء أيها العمر لأحد الأولاد عثرته بها. لكن الأب جوريه بيدرو كانت لديه أفكار أخرى عن مهمته، كان يرى أن الآخرين خاطئون، وسوف عليه غضب شديد والرب معهن:

- يا سيداتي، أليس لديكن شيء آخر تفعلنه؟ أليس لديكن منزل تعتنين به؟ إنني لست يسوع المسيح المعبود، ولا الملاك جبريل، اذهبن للعمل في منازلكن، لإعداد الطعام، والخياطة.

كانت الضفادع جرت ماء المقدس ينظرن إليه، مذهولات، فكأنه كان المسيح الدجال شخصياً. وأنهى الكاهن كلامه قائلاً:

- لكن بعضكن في منازلكن، سوف تجدن سعادة ولاحقاً بصورة أفضل من شمكن هذه رائحة ثوب ... الدهن ... الدهن

وفي حين كن يخرجن مرعوبات، كن يرددن قائلات عن رقة أكثر من الغضب:

- يا يسوعي المسيح المعبود ... سامح الإله عنه!

ذهبت النسوة التقيات في خط مستقيم إلى عند الأب كلوفيس، الذي كان بديناً، وأصلع، ويدا مرح مرح. كان هو معرّف هاته السيدات. وروين له وسط صيحات العجب والدهاش، ما حدث. هز الأب كلوفيس للتقيات المحاتر يعني حنون ومرح، قائلاً:

- هذا الأمر سوف ينتهي. الأب بيدرو جاء منذ فترة قريبة فقط، فيما بعد، سوف يرى أنه يجب الاهتمام بالأتقى. فأنتن سن الرب الحقيقيات سوف تمر الصعوبة ... والأمانات ولا تنسين أن هذا اليوم هو يوم تبريك

استغرق الأب كلوفيس في الضحك بعد أن ذهبن، وهمس في داخله: هؤلاء الكهنة حديثو العهد، الفارحون، يكدرون حياة الناس.

وفيما بعد، أخذت النسوة التقيات تمشين مقتربات أكثر فأكثر من الأب جوريه بيدرو. وفي الحقيقة فهن لم يصلن معه أبداً إلى صلة حسنة تماماً. إن هيئته المهيبة، وصمته التي كانت تكرس للظروف التي تكون فيها ضرورية، ونعمته للمدرس الكهنوتية الصغيرة، كانت تدفعهن إلى أن يحترمنه أكثر مما يحببنه. بيد أن أواصر الصداقة تعززت بينه وبعض النسوة، وهن بصورة عامة أرامل، أو زوجات رجال أذياء. وكان سبب آخر يباعد بينه وبين التقيات المترهبنات. وهو أنه كان نقياً

للواعظ ممتاز. فهو لم ينجح أبداً في وصف الجحيم بقوة الإقناع التي كان يملكها الأب كلوديس. مثلاً كانت بلاغة الأب بدرو فقيرة، وفاشلة في كثير من الأحيان. لكنه كان لديه الإيمان. لقد كان مؤمناً. ومن جهة أخرى، كان من الصعب التأكيد بأن الأب كلوديس يؤمن بالجحيم على الأقل.

في البدء، فكر الأب خوزيه بدرو بتسليم «فرسان الرمال» إلى النسوة التقيات. وكان يعتقد بذلك أنه ليس فقط سينقذ الأولاد من حياة بائسة، بل أنه سوف ينقذ تقيات لم تمتت من حياتهن غير محببة، بصورة صارة. كان في وسعه الحصول على أن يكرس بعضهن للأولاد بعض التقى الحار اللواتي يكرسن به أنفسهن للكنائس، ولكهنة ذوي اللحية. وكان الأب خوزيه بدرو يجرب (أكثر مما كان يعلم) بأنهن قد كن ينفقن حنانهن في أحاديث تافهة في الكنائس، أو في تطريز مناديل للأب كلوديس. ذلك لأن هاته العوانس المسنات لم يكن لهن ولد، أو زوج يكرسن له وقتهن وحنانهن. إنه الأب سيأتيهن بأبناء. ظلت هذه الفكرة تراود الأب خوزيه بدرو زمناً طويلاً. بل حدث أنه اصطحب إليهن ولداً كان قد فر من دار الإصلاحية، وذلك قبل زمن طويل من تعرف الأب إلى «فرسان الرمال»، حين كان يسمع القليل عنهم. وأدت التجربة إلى نتائج سيئة. لقد فر الغلام من منزل العانس المسنة، آخذاً معه عدة قطع من المصنوعات، مفضلاً على الملابس الجميلة والغذاء المضمون مع واجب تلاوة التسبيح بصوت عال، وحضور مختلف القداديس وصلوات التبريك اليومية - حرية الشارع، حتى وهو يقاسي الإسهال البائنة، وحتى دون أن يكون متأكداً من الحصول على غداء. وفيما بعد، فهم الأب خوزيه بدرو أن التجربة قد أخفقت بخطأ العانس المسنة أكثر منها بخطأ الولد. ذلك، طبعاً، كما كان يرى الأب خوزيه بيدرو، لأن من المستحيل تحويل ولد متشرد وسارق إلى قديس. لكن من الممكن جداً تحويله إلى رجل شغيل. وكان يأمل بأنه حين سيتعرف إلى «فرسان الرمال» سيحقق اتفاقاً بين بعضهم والنسوة التقيات، محاولة القيام بتجربة جديدة، تكون هذه المرة موجهة جيداً. ولكن ما أن قدمه الغلام «الشارب اللطيف» إلى المجموعة، وحين كسب شيئاً فشيئاً ثقة القسم الأكبر منهم، رأى أن من غير المجدي كلياً أن يراوده هذا المشروع. لقد أدرك أن هذا المشروع عبثي، لأن حب الحرية كان الشعور الأكثر تجذراً في قلوب «فرسان الرمال»، وأنه ينبغي استمالتهم بوسائل أخرى.

في الآونة الأولى، كان الأولاد ينظرون إليه بحذر وريبة. ومراراً عديدة في الشارع، كانوا يسمعون أن الخوري يأتي بالنحس وسوء الحظ، وأن التعامل مع الكهنة



هو جيد فقط للنساء. لكن الأب خوزيه بدرو كان عاقلاً، ويعرف كيف يعامل الأولاد. كان يعاملهم كرجال، وكأصدقاء. وهكذا كسب ثقتهم، وأصبح صديق الجميع، حتى أولئك الذين، مثل بيدرو بالا و«الأستاذ»، لم يكونوا يحبون الصلاة. ولاقى صعوبة كبيرة إلا مع «ذي الرجل الرخوة». وفي حين كان «الأستاذ» وبيدرو بالا و«القط» لا يبدون اهتماماً بأقوال الكاهن (ومع ذلك، كان «الأستاذ» يحبه كثيراً لأنه كان يحضر له كتباً) فإن «سكر الشعير» و«ذا الكوع الناشف» وجواو غراندي، وعلى الأخص الأول، كانوا يهتمون كثيراً بما كان يقوله، فإن «ذا الرجل الرخوة» من جهته كان يبدي عداء عنيداً جداً في البدء. إلا أن الخوري خوزيه بيدرو انتهى به الأمر إلى كسب ثقة الجميع. وهو قد اكتشف على الأقل، في «سكر الشعير» دعوة راهبة، واستعداداً ليكون كبيركياً.

ولكن في مرة بعد الظهر هذه، بعض الفتيان بدون ارتياح كبير إلى مجيء الأب خوزيه بيدرو. اقترب منه «سكر الشعير» وقبل يده، وكذلك فعل «ذو الكوع الناشف» وجواو غراندي. وأوضح الكاهن سبب مجيئه:

لقد حضرت دعوة لكم جميعاً.

أرهفت الآذان لتسمع. وتقدم «ذو الرجل الرخوة» قائلاً:

- سوف يأخذنا للمعتقد. أود تماماً أن أرى من الذي سوف يستجيب له.

لكنه لزم الصمت، لأن بيدرو بالا كان ينظر إليه بغضب. وابتسم الكاهن ابتسامة ضعيفة وجلس على صندوق. ورأى جواو غراندي أن جبة الخوري كانت قذرة وضيقة. وكانت مرقعة بخرق كبيرة بخيط الأسود. وكانت واسعة جداً بالنسبة لنحافة الكاهن. ولكن بكوعه بيدرو بالا الذي نظر هو أيضاً إلى الجبة. حينئذ قال بالا:

- أيها الصبيان، إن لدى الأب خوزيه بيدرو الذي هو صديقنا ما يقوله لكم. عاش الأب خوزيه بيدرو!

كان جواو غراندي يعرف أن هذا كله نابع عن الجبة الممزقة والكبيرة جداً بالنسبة لنحول الكاهن. وهتف الآخرون: «مرحى!». ابتسم الكاهن، مشيراً بيده. ولم يكف جواو غراندي يجول عينيه في الجبة. وقد رأى أن بيدرو بالا كان زعيماً حقاً، يعرف كل شيء، ويحس أن يفعل كل شيء. ومن أجل بيدرو بالا، كان جواو غراندي مستعداً لأن يقطع جسمه مزقاً، مثل ذلك الزنجي الكاهوس من أجل باربورا، سيد الفرسان. ودس الأب خوزيه بيدرو يده في جيب جبته وأخرج كتاب الصلوات الأسود. وفتحه، وأخرج من داخله بضع بطاقات ذات العشرة آلاف رييس كل منها.

ـهد ،لأحس ن تدعـوا جميعاً إلى مصار خيول الخشـبية ملونة ،اليوم ،في ساحة ايتانا جيب كان سنصر ن نتهلل بوحره أكثر، وأن سود فرح هائل القاعه كلها دلك لأنه على هذا النحو سوف يكون اكثر اقتناعاً بانه عمل بمشيئه الله حين أحد من الخمسة كريزيروس التي اعطته اياها دونا علهرمين سنة لشراء شموع لمذبح العذراء، خمسين كريزيروس لاصطحاب « فرسان الرمال » إلى مصار الخيـول الخشـبية ونظر الأب وجوههم م سـهج محاذ، أحس ساخيرة، والأوراق المالية في يـده وهـو ينظـر إلى نصبان الصغار وحث سدرو بالا شعره (المسترسل على أذنيه)، وأراد أن يتكلم، ولم يستطع فصر حسند ان « لاساد »، وكان هذا الذي أوضح

ـ ب بي، أنت رجل طيب كان يريد أيضاً أن يقول إن الأب هو طيب مثل حواو عراندي، لكنه حسب نه ربما حس الكاهن بالاستياء بمقارنته بوعي لكن ما يحدث هو أن « ذا الرجل الرخوة » و « ذا الكوع الناشف » يعملان كلاهما في المصار وكانا مدعوين جميعاً هو هذا « الاساد » برهة ـ من قبل صاحب المصار الذي هو صديقهم، سوف يكون عجباً هذه لبنة ونحن لا ننسى لك دعوتك

كان « الاساد » يتكلم برصانة، منهياً كلماته، معتقداً أن اللحظة حاسمة جاء رأ شيء كثيره وكان بدرو بالا يومئه بايماءه من رأسه

ـ سيكون ذلك مرة أخرى يمكن لن يغضب الأب لم يقبل الدعوة من يغضب، من كذلك؟

فرح يصر ن الكاهن الذي عود وجهه الفرح

ـ كلا، لن أغضب وسيكون دعوتي لكم في مرة أخرى

وعبر ن الأولاد بأسهم

ـ من سيكون الأمر نصل هكذا لأن اسعود ثني

وصمت بعد الدمع كان سعص واعتقد أنه ربما كان هذا عبرة من الله وسيهدي، به. أن الكاهن قد ارتكب عملاً سيئاً وكانت نظرته من المعرفة تحث أن الأولاد فيرتو منه حقوه

كانوا ينصرون الى الكاهن دون أن يفهموا ورأى بدرو بالا مدى حاجته كي وب عنه حين صيانة ويحاول « الاساد » أن يتكلم بكر حو و عن الذي فهم كل شيء، رغم انه كان أول ذلك من الجميع

ـ من كان هذا مال الكنيسة يا ب ـ؟

وعض شفته، غاضباً من نفسه



لقد فهم الناقوس و عتقد « سكر الشعير » أن هذه كانت خطيئة كبيرة، لكنه حس بأن طيبة الأب تتخطى الخطيئة وحينئذ جاء « ذو الرجل الرخوة » وهو يعرج كم من العادة، كأنه قادم وهو يصرع ذاته. ووصل إلى قرب الكاهن، وكان يصرح مقرباً في ليده، مع أنه خفض صوته كثيراً اثر ذلك

ـ نحن نستطيع اعادة النقود إن حيث كانت لا عليك، فلا تهتم و سم العلام

ن سيماء « ذي الرجل الرخوة » والمودة التي كان الكاهن يقرأها في عيون الجميع (أليست هذه دموعاً، تلك التي يراها في عيني عراندي)؟ قد اعادت اليه الهدوء، وصفاء نفسه، وثقة بقدرته وبأمنه وأجاب بصوته الطبيعي

ـ ب أزمنة منه، قد اعطتني خمسة كروزيروس لشراء شموع وأخذت خمسين كروزيروساً منها لكي تركبوا بها خيول المصار الخشبية وسيحكم الله ما اذ كنت قد حسنت العمل والآن سوف اشتري شموعاً بالمبلغ كله

كان بدرو بالا يحس بأن عليه ديناً يؤديه نحو الكاهن كان يريد أن يعرف الأب ب جميع همومه ويدعم يرأيه وسنده، غير هذه، لقد اسعد لنحيي عن العمل لدي كي يمكن ن يسمح خلال فترة بعد ظهر ذلك اليوم، ودعا الأب

سنذهب الى المصار برؤية « ذي الكوع الناشف » و « ذي الرجل الرخوة » لأن لي فترة بعد الظهر فهل تريد أن تأتي معنا يا ب ـ؟

و هل لا حزنه بدرو، لأنه كان يعلم بأن هذا يشكل خطوة إلى الأمام في علاقته حميمة مع فرسان الرمال وهكذا ذهبت جماعة مع الكاهن إلى الساحة وامتنع العديدون عن الذهاب، كان فيهم « نقطة » الذي ذهب لزيارة « دونا » لكن الذين ذهبوا ن المصار . كانوا يبدون مثل فريق من الأولاد الصغار الصبيان العائدين من درس في عيد الفصح وكانت ثيابهم جيدة ونظيفة، لكان المرء يحسبهم تلامذة مدرسة داخلية، يعرفه المدرس الذي كان خلف صفهم

في الساحة، ومع الكاهن يفرحون على كل شيء وأشاروا باعتزاز إلى « ذي الكوع الناشف » الذي كان يحاكي صوت الحيوانات، وإلى « ذي الرجل الرخوة » الذي كان يدير مصار الخيول الخشبية وحده. لأن نهورينهو كان قد ذهب لاحتساء الخمر في احدى الحانات، وسره خطأ أنه لم يكن لاضواء مشتعلة في فترة بعد الظهر لم يكن ذلك جميلاً كما هي الحال في الليل حين يدير الاضواء بألوانها المشعة المتعددة لاسيما كيهم كانوا معجبين بـ « ذي الكوع الناشف »، الذي يحاكي صوت

الحيوانات. و«ذي الرجل الرخوة» الذي كان يدير مضمار الخيول الخشبية، ويقوم بإصعاد الأولاد إلى صهوات الخيول، ثم ينزلهم عند انتهاء دورهم.

وقام «الأستاذ» بقلم صغير، وغطاء علبة، برسم «ذي الكوع الناشف» في بدلة قرصان Filibuster. كانت لدى «الأستاذ» موهبة خاصة في الرسم، وأحياناً كان يكسب نقوداً برسمه على الرصيف أشخاصاً يمرون، وفتيات شابات أثناء مرورهن مع خاطبيهن. وكان هؤلاء يتوقفون لحظة، ويمنحون الفقير ... الرسوم غير المحددة بعد، ويقولون:

- هذا رسم مشابه جداً.

وكان «الأستاذ» يلتقط القروش ويستمر حينئذ في روتشة الرسم المخطط بالطباشير، وتوسيعه، وتصوير المارة من الرجال والنساء المتدللات، إلى أن يطرده شرطي من الجادة. وأحياناً، كان المارة يتجمعون قرب الرسام، متأملين في رسومه، وكان بعضهم يقولون:

- هذا الولد ذو موهبة واعدة. وخسارة أن لا تهتم الحكومة بهذه المواهب.

وكانوا يتحدثون عن حالات أولاد من الشوارع، ساعدتهم بعض العائلات ... مساعدة فأصبحوا شعراء كباراً، ومغنين، ورسامين.

أنهى «الأستاذ» رسمه (الذي أدرج فيه مضمار الخيول الخشبية، وبيدرو بولا حتى الأطفال) وأعطاه للكاهن. وكانوا قد شكلوا جمعاً غريباً كثيفاً، وراحوا ينظرون إلى الرسم الذي كان الكاهن يمتدحه، حين سمعوا:

- ولكن هذا هو الأب خوزيه بيدرو.

وسددت العانس ... نظارتها المذهبة نحو الجماعة مثل سلاح حربي. ولبث الأب خوزيه بيدرو شبه مرتبك. وكان الأولاد ينظرون بفضول إلى عظام رقبة العجوز وصدرها، حيث كانت حلية ثمينة تتلألأ في ضوء الشمس. وكانت لحظة لبث الجميع فيها صامتين. إلى أن استعاد الأب خوزيه بيدرو شجاعته، وقال:

- مساء الخير، أيتها السيدة مرغريت.

لكن الآنسة مرغريت ... سددت نظارتها الذهبية المذهبة، محدقة:

- ألست تخجل لكونك في هذا المكان، يا أبت؟ ألست كاهناً للرب؟ رجل في مثل مسؤوليتك وسط هؤلاء الأوباش.

- إنهم أطفال يا سيدتي.

حدجته العجوز بنظرة ... ورسم فمها تعبير الازدراء. وأردف الأب قائلاً:



- لقد قال المسيح «دعوا الأطفال يأتون إليّ ...»

- أطفال... أطفال... وصمتت العجوز.

- لقد قال الرب: شقي هو الذي يسيء إلى طفل.

ورفع الأب خوزيه بيدرو صوته فوق ازدراء العجوز. وقالت هذه:

- هؤلاء ليسوا أطفالاً، إنهم لصوص. أنذال، لصوص. هؤلاء ليسوا أطفالاً. بل يمكن أن يكونوا من أفراد «فرسان الرمال». ورددت فوها هذا بازدراء.

وراح الأولاد ينظرون إليها في فضول. كان «ذو الرجل الرخوة» العائد من المضمار، ينظر. لأن بيدرو بولا كان قد عاد، ينظر إلى العجوز بغضب. وخطا بيدرو بولا خطوة إلى الأمام. وأراد أن يوضح:

- نحن نريد الأب فقط أن ...

- لا تقترب مني. لا تقترب مني، يا قذارة! ولولا الأب، لاستدعيت شرطياً.

وأطلق بيدرو بولا ضحكة فاضحة، حين فكر بأنه لولا وجود الخوري، لكانت العجوز قد فقدت حليه الذهبية وحتى النظارة بالذات. وابتعدت العجوز بهيئة متعالية كبيرة، بعد أن قالت للأب:

- على هذا النحو لن تذهب بعيداً يا أبت. إنه أكثر العلاقات ...

كان بيدرو بولا يضحك بصورة أشد، كل مرة، والكاهن هو أيضاً مستغرق في ضحكه، وإن كان قد أحس بالألم من أجل العجوز، لعدم تفهمها. لكن مضمار الخيول الخشبية كان يدور، حاملاً الأولاد بملابس جديدة، وشيئاً فشيئاً صدرت عيون «فرسان الرمال» عن المضمار، وملأت ... الخيول الخشبية، وتدور مع الأضواء. وفكر الأب: إنهم أطفال، نعم.

في بداية الليلة، هطل عارض من مطر. لكن الغيوم تلاشت بسرعة من السماء، وتلألأت النجوم، وتألق البدر. وبعد الفجر، وصل «فرسان الرمال». ونشر «ذو الرجل الرخوة» المحرك. ونسوا أنهم لا يشبهون الأولاد الآخرين، ونسوا أنهم ليس لهم أب ولا أم ولا منزل. وأنهم يعيشون من السرقة، كرجال، وأن المدينة تخشى بأسهم كلصوص. ونسوا أقوال العجوز ذات النظارة المذهبة. نسوا كل شيء، وأصبحوا مشابهين لجميع الأولاد، يمتطين خيول المضمار الخشبية، دائرين مع الأضواء. كانت النجوم تتلألأ، وتألق القمر البدر. ولكن فوق كل شيء كانت تتلألأ في ليل باهيا، هذه الأضواء الزرقاء والخضراء والصفراء والحمراء لمضمار الخيول الخشبية اليابانية.

* * *

# عمال الموانىء

ألقى بدرو بالا قطعة نقود من أربعمئة ريس نحو جدار الجمرك، فسقطت قرب قطعة «الشارب اللطيف» وابر دث. ألقى «سكر الشعير» قطعته، فاستقرت القطعة قرب قطعتي بدرو بالا و«الشارب اللطيف»، وكان هذا مقرفصاً، يراقب ويسرع لسيجارة من فمه

- هذا ما يروق لي لديه بصورة سنه

وتابعوا لعبهم، لكن «الشارب اللطيف» و«سكر الشعير» خسرا قطعتي الأربعمئة «ريس» للعب وضعهما بدرو بالا في جيبه قائلاً

- أنا شخص محظوظ كي سدو

فيما كانوا يلعبون ورق شحن وكان رجال ونساء يخرجون من السوق كانوا سيضربون بضربة بعد الظهر هذه ورق «حبيب الله القصب» وكان بمصارع الراقص، ومهنته صياد سمك يعمل في أحد المصائد وتابعوا لعبهم بالنقود حتى «نصف» بدرو بالا اللاعبين الآخرين من النقود كانت البدينة على وجهه تلمع كان يحب أن يكسب على هذا النحو في لعبة نزيهة. لا سيما حين يكون شركاء اللعب بقوة «سكر الشعير» الذي كان زمناً طويلاً بطل الجماعة، وبقوة «الشارب اللطيف» وحين انتهوا، قال «الشارب اللطيف» حزيناً

- سوف يقرضني، إنه قرش واحد اذ لم يبق لدي فلس واحد

إثر ذلك، تطلع نحو البحر، والقوارب في المرسى

- إن «حبيب الله القصب» سوف يبحر في مرة بعد الظهر هل ستذهب نحو حوض السفن؟

أجاب «سكر الشعير» انه سيسهر «حبيب الله القصب» لكن بدرو بالا ذهب مع «الشارب اللطيف» نحو حوض السفن واجتازا شوارع مسدة، وغرسا أقدامهما في الرمل وكانت سمة نحو من العمر الخامس، وسل من الناس يروحون ويجيئون وسل بيدرو بالا «الشارب اللطيف»



- ألا ترغب في أن تكون بحاراً؟

- كم يرى سي مرتاح هنا كلا، لا أريد البحر

- أما أنا، فأريد ركوب البحر حين تنطلق أمواج صورية والعاصفة. أنسيت حبيبة؟ ألا تذكر تلك القصة التي قرأها لنا «الأستاذ»؟ ربي فيها عاصفة؟!

- نعم، إنها قصة جميلة!

كان بدرو بالا يتذكر القصة و«الشارب اللطيف» كان يرى من حماقة مغدورة بعد، حسب سيكون من السهل جداً، حين يفكر أن يعيش حياة سهلة بملاح قاطع طريق، «بلانديرو»، خنجره في حزامه، وقرابه تحت ذراعه، وقبعته سمراء عندما على رأسه كانت هذه هي حياته التي يشتهيها حين يسمع من الرحال

وصلا إلى ... به بعمر ... ٧٠ كان جان داد م. وهو عامل ميناء زنجي، متين البنية ومتصر قديم للإضرابات، مرهوب الجانب ومحبوب من جميع السحرة. كان جالساً على صندوق كان يدخن الغليون وعضلاته بارزة تحت القميص وحين رأى الغلامين حياهما

- نهاركما سعيد أيها الصديق «الشارب اللطيف»، وزعيم بدرو بالا

كان يحيي بدرو «الزعيم بدرو» وكان يحب الكلام معه وأفسح مكاناً على صندوقه لبدرو بالا ... ووقف «الشارب اللطيف» تجاهه وإلى جانبه كانت زنجية مسنة تبيع ثمار البرتقال، ومربى جوز الهند، وهي تلبس تنورة فضفاضة، وقميصاً صغيراً يكشف عن نهديها نصف رعشتهما وكان «الشارب اللطيف» يفحص ثدي الزنجية إلى حين كان يقشر برتقالة يقطعها من فمه

- ما زلت لديك مقدمة مسرح مريحة، أليس كذلك يا خالة؟

ضحكت الزنجية قائلة

- أولاد الشوارع هؤلاء لم يعودوا يحترمون الأشخاص الأكبر سناً منهم. أيها الزمن «جان دو دام» أليس قبل اليوم غلاماً بهذه السن، يتكلم عن النهدين مع عجوز مسنة مثلي؟

لا تتصوري ستقعدين يا خالة انك ما زلت تفعلينها بصورة جيدة

ضحكت الزنجية من صميم قلبها، وقالت

- لقد أصبت المكان، أيها «الشارب اللطيف» لقد تجاوزت تلك السن أمثال ... و«الشارب» إلى جان د دام لقد رأيته حين كان ولداً مشعثاً، لقد قاد الإضراب الأول. هنا في حوض المياه في ذلك الوقت لم يكن أحد يا لشيطان يعرف ماذا

معي لاضراب هل تذكر يا لصديق؟

هز جان د دام راسه علامة موافقة، وأغمض عينيه متذكراً الايام البعيدة أيام لاضراب الاول، لدى عودته على أرصفة المساء كان هو من اقدم عمال المرفأ، رغم أنه لم يبلغ بعد ضعف في السن

وقال سد رو ملا

- لرجعي د سمي شعره، عاش ثلاثين عاماً مصرورة شلالة (١٥)

وكشفت الرجعية عن حرتها الصوفية لسعادة، وذلك بعد أن سحبت عنها المدنيين لدى كل عنصر شعرها، ومرحها «شارب انتصف» قائلاً

- هد نصعي هد مدين، أنه يتها الرجعية الملأى بالتصنع

وسأله جان د دام

- هل تذكر رعون، أيها لام نوير؟

- لاشعر، الذي قتل في لاضراب؟ وكيف لا؟ أجل، اني اذكره كان احد مدين سه كل يوم بعد الظهر، لنتحادث قليلاً معي كان يحب المزاح

- لقد قتلوه هنا بالذات، في ذلك اليوم حين سحقت الخيانة العمال

وعبر بدرو ملا، وسأله

- لم تسمع الحديث عنه أبداً؟ أيها الزعيم؟

- كلا

كنت بين حشد في برهة من العمر بعد ذلك، قضيت ست عاماً في منزل سحيق بعد حرب، وبعد هرب وبعد ذلك، لم اسمع بشأنك إلا حين اصبحت زعيماً للمرفأ. لكن كنت أعلم أنك سوف تتمكن من تدبير شؤونك. كم عمرك لآن؟

أخذ بدرو يقوم بحساب، وقاطعه جان داد م

- ست او خمسة عشرة، أليس كذلك يا بناه؟

أجاب الرجعية بالايجاب، وتابع جان داد م كلامه

- يوم بدي شاه، بت مكتب هنا، على أرصفة المساء هذا مكان للعمل، محجوز بك

(١٥) من شعر برازيلي

- ملاحظة من المترجم -



- لماذا؟ هكذا سأل «شارب القطف»، الذي اقلقته نظرة بدرو المذهولة

- لأن رعون هو ابوه، ولأنه مات هنا قتلاً، مناضلاً من أجل، وفي سبيل حقنا حتى. لقد كان رجلاً وأكثر كان يساوي عشرة رجال من أولئك الذين نراهم اليوم هنا

- أهو ابي؟ هكذا سأل بيدرو بالا، الذي لم يسمع عن هذه القصص، سوى شائعات غامضة

- نعم هو بوث كان يلقب بـ «الاشقر»، وحين اندلع الاضراب، كان يلقي خطابا عنا، بحيث لا تمكن لاعتقاد ابداً أنه عامل مناء. لقد اصيب برصاصة ولكن هنا مكان لت عن أرصفة المساء

كان بدرو بالا يمسح لاسعف بحصاه ونظع إلى جان د دام

- لماذا لم تحدثني بعد عن هذا الامر؟

- لقد كنت صغيراً بحيث لا تمكن أن تفهم والآن لقد أصبحت انت رجلاً -

وصمت جان د دام برهة

صمت بدرو بالا هو أيضاً لقد حس بالسعادة بمعرفة قصة ابيه لأن هذا كان رجلاً شجاعاً لكن امتلأ بدرو بسؤال في عينيه

وامي، هل عرفتها؟

فكر جان د دام برهة، ثم قال

- كلا، لست ادري حين تعرفت إلى «الاشقر» لم يكن لديه زوجة لكنت عش معه

أما انا فقد عرفتها

كانت الرعية هي التي تتكلم وقتئذ لقد كانت امرأة حبيبة جداً (شقية حلوة!) وأحب قصة ان بدت قد حققتها، وأنها كانت من سرة غنية من الأعالي، هناك، وشارت إلى مدينة بعالية وقد ماتت وكنت انت لم تتجاوز الشهر السادس من عمرك في ذلك حين. كان رعون يعمل في معمل السجائر، في بداية بعد ذلك، جاء إلى ارصفة المساء

وردد جان د دام، مرة اخرى

حتى برهة

هز بدرو بالا رأسه بالايجاب ثم قال

- كان ذلك نعمة هنيئة، لاضراب، أليس كذلك؟

وراحوا يصغون إلى جان دادام وهو يتكلم عن الأضراب. وحين انتهى، قال بيدرو بالا:

- أنا، أحب قيادة إضراب. سيكون هذا شيئاً ممتعاً.

ودخلت باخرة. فنهض جان دادام واقفاً.

- الآن سنقوم بشحن هذه السفينة الهولندية.

كانت السفينة تصفر أثناء مناورات الرسو. ومن جميع الزوايا كان يصل عمال مو ن، سيتجهون نحو العنبر الكبير. ونظر اليهم بيدرو بالا بحنان. كان أبوه واحداً منهم، وقد مات دفاعاً عنهم. كان يمر، هناك، رجال بيض، وخلاسيون، وزنوج، زنوج كثيرون. انهم سيملأون خزانات السفينة بأكياس الكاكاو، وشحنات من التبغ، والسكر، ومن جميع منتجات ولاية باهيا، هذه المنتجات التي سترحل إلى أوطان نائية، حيث سيقوم رجال مثلهم، وربما طوال القامات، وشقر، بتفريغ السفينة، تاركين خزاناتها فارغة. لقد كان أبوه واحداً منهم. الآن، فقط، أصبح يعرف ذلك ولأحلامهم. ألقى خطبة، واقفاً فوق صندوق. لقد قاتل، وأصيب برصاصة حين هاجم الجنود خيالة لعمال المصريين. وربما كان دم أبيه قد سال هنا بالذات، حيث يجلس هو، بيدرو بالا. راح الغلام يحدق في الارض المكسوة الآن بالاسمنت. تحت هذا الاسمنت لا بد أن يكون الدم الذي سال من جسد ابيه. لأجل هذا، فإن مكانه ما زال محجوزاً على أرصفة الميناء، شغله يوم يشاء، بين هؤلاء الرجال. المكان الذي كان لأبيه... حياة شاقة، هذه الحياة مع شحنة ستين كيلوغراماً على الكتفين. لكنه على هذا النحو، سيكون بامكانه ان يقود اضراباً - مثل اضراب يه وجان دادام، وأن يناضل شرطة، وأن يموت من أجل حقوق الآخرين. وهكذا سينتقم لأبيه، ويساعد هؤلاء الرجال في النضال من أجل حقوقهم (كان بيدرو بالا لديه فكرة غامضة عن معنى هذا الأمر). كان يتصور نفسه في الاضراب، يقاتل. وكانت عيناه تلمعان كما تلمع نصلة

وقطع حلمه «الشارب اللطيف» الذي كان يمتص البرتقالة الثالثة

هل تفكر في موت الصخمة التي عندك، أيها الأخ الصغير؟

نظر - برعية الصغير إلى بيدرو بالا بحنان

- هذا ابن امه. لأن شعره مجعد، مثل شعر أمه. ولولا هذه الندبة على وجهه، ما احتجت إلى صورة برؤية ريمون. انه انه رجل وسيم!

صحك «الشارب اللطيف» بين اسنانه. وسأل كم يتوجب عليه ثمناً للبرتقال، ودفع



مثل رئيس. ثم نظر مجدداً إلى ثديي البرعية وسأل

- أليست لك ابنة، يا خالتي؟

- ولماذا تريد أن تعرف، أيها الناس؟

صحك «الشارب اللطيف»

- كان باستطاعتي أن أتدبر امري معها.

وقدمت له البرعية بفردة حذائها العتيق. وتجنب «الشارب اللطيف» الضربة

- لو كان لي بنت، لما كنت لسمارك، أيها التافه!

ثم تذكرت

الن تذهب اليوم إلى ايتابتوا[16]؟ سيكون احتفال عظيم هناك عند أوموبو

- هل سيكون هناك طعام كثير؟ وشراب «الأبوا»[17]؟

- سيكون منها الكثير

وتأملت في بيدرو بالا، ثم سألته:

- لماذا لا تذهب انت أيضاً، أيها الابيض؟ إن أوموبو ليس فقط قديساً للزنوج به قديس جميع الفقراء

مد «الشارب اللطيف» يده باشارة تحية، حين تحدثت البرعية عن أوموبو، الالهة. حذري كان المساء يهبط. واشترى رجل مرَّ من حزم الهند. واضاءت الانوار بعد، ونهضت البرعية. وساعدها «الشارب اللطيف» على وضع طبقها على رأسها. وفي البعيد، ظهر «مكر الشعير» برفقة «حبيب الله الطيب». ونظر بيدرو بالا مرة أخرى إلى الرجال الذين كانوا، على أرصفة الميناء، يشحنون سالات على السفينة الهولندية. وعلى ظهور الزنوج والخلاسيين العريضة كانت تتلألأ قطرات العرق. وكانت الرقاب منفصلة (بتشديد الصاد وفتحها) تختفي تحت الشحنات. وتكررت الروائح تصور محدثة صحة شديدة أن يكون يوماً في اضراب مثل أبيه. النضال والقتال من أجل حق... في أحد الايام، عند باب الميناء، على الارصفة، سوف يستطيع رجل مثل جان دادام أن يروي قصته لأولاد آخرين كما يروي الآن قصة أبيه. كان عينا

(١٦) ايتابتوا: أحد أحياء باهيا.

- ملاحظة من المترجم -

(١٧) ألو Aluá: مشروب باهاني، مصنوع من الزنجبيل. وصنعه من حصاص الزنوج.

- ملاحظة من المترجم -

بيدرو بالا تسمعت بصوت قوي في الليل الذي ساد منذ قليل

ساعدوا «حبيب الله الطيب» في تهريب صيده السمك، التي كانت جيدة. وقد ساعده بيانغو، واشترى صيدة الأسماك كلها رجل صاحب مسمكة في السوق. إثر ذلك، ذهبوا لتناول الطعام في رستوران قريب. وذهب «سكر الشعير» إلى الأب خوزيه بيدرو الذي كان يعلمه القراءة والكتابة. وقبل ذلك، مر الغلام بالمستودع، ليأخذ منه علبة أقلام كان قد نشلها في الصباح، من إحدى المكتبات. واتجه بيدرو بالا، و«الشارب اللطيف»، و«حبيب الله الطيب» نحو «كاندومبليه»[18] في «غانتوا» (وهذا الأخير كان أوغاناً[19]) حيث ظهرت الآلهة «أومولو» بثيابها الطقوسية الحمراء، وأعلنت لأولادها الأعزاء الصغار الفقراء، أن البؤس سينتهي عما قريب، وأنها سوف تنشر الجدري بين الأغنياء، وأن الفقراء سينالون الغذاء الجيد، وسيكونون سعداء. كانت الأتاباكات[20] تعزف في ساحة «أومولو». وقد علمت هذه أن يوم انتقام الفقراء، بأن كانت الزنجيات يرقصن، والرجال متهيجين. أصبح يوم الانتقام قريباً.

راح بيدرو بالا يسير عبر شوارع المدينة بمفرده، إذ إن «الشارب اللطيف» و«حبيب الله الطيب» قد ذهبا يرقصان في حفلة راقصة للزنوج بعقرة. ونزل بيدرو في الطرقات المنحدرة المؤدية إلى المدينة السفلى. كان يسير ببطء، وكأنه يحمل ثقلاً في داخله. كان يمضي وكأنه شيء ما داخل ذاته. كان يفكر في حديث بعد الظهر هذا، مع جان دي دام، هذا الحديث الذي أبهجه لأنه أصبح يعرف بعد الآن أن أباه كان من شجعان المرفأ، رجلاً ترك قصته. لكن جان دي دام لم يتحدث أيضاً عن حقوق عمال الميناء. ولم يسبق أبداً لبيدرو بالا أن سمع قبلاً حديثاً عن هذه الحقوق، ومع ذلك فقد مات والده من أجلها. وبعد ذلك، في احتفال «كاندومبليه» في حي غانتوا، قالت الآلهة أومولو، اللابسة ثيابها الحمراء: إن يوم انتقام الفقراء أصبح قريباً. كل هذا كان يرهق قلب بيدرو بالا، كما كانت هذه الأحمال التي يزن كل منها مئتي كيلوغراماً، ترهق صدر حتى المساء

(١٨) كاندومبليه: هو معبد ديني لديانة الزنوج [illegible]
- ملاحظة من المترجم -

(١٩) أوغان Ogan: عضو تابع لإحدى كنائس ديانة الفتيشية (شبه الوثنية Fetichism)

(٢٠) أتاباكات، جمع أتاباك atabaque، وهو آلة موسيقية يستعملها الزنوج أثناء احتفالاتهم الدينية.
- ملاحظة من المترجم -



حين وصل إلى أسفل المنحدر، تابع نحو الرمال محتماً بالرغبة بالذهاب إلى المستودع ليرى إذا كان سيام قد وضع عند مروره كلب، ظاناً أنه سيتنازعه على العظمة التي كان الكلب يقضمها. وفي آخر الطريق، لمح بيدرو بالا شبحاً غامضاً يتحرك. كان كأنه امرأة سريعة الخطى وتحرك جسمه. جسم الغلام الفتي كما يتحرك حيوان في لرؤى أنثى، وخطوات سريعة. اقترب من المرأة التي كانت الآن تدخل إلى ناحية الرمال وأن الرمل تحت قدميه. ولاحظت المرأة أن هناك من يتبعها. وكان بيدرو بالا يستطيع أن يراها جيداً حين كانت تمر تحت ضوء الفوانيس. كانت زنجية صغيرة فتية تماماً، في حوالي الخامسة عشرة من عمرها، ربما في مثل سنه. لكن نهديها كانا يستحسن حادين، وأليتيها ترقصان تحت الثوب. ذلك لأن الزنجيات حتى حين يسرن بخطوات صغيرة، يبدو أنهن يرقصن. وصارت الرغبة لدى بيدرو بالا رغبة تضاف إلى أمنية يحس بها لخنق الهم الذي يثقل على صدره. ولدى تفكيره بتلك الزنجية الصغيرة لوحدها، لم يعد يفكر في موت أبيه المدافع عن حقوق العمال المضربين؟ ولا في الآلهة أومولو الداعية إلى الانتقام في احتفال العيد ولباس الفقراء. كان يفكر في إلقاء الزنجية الصغيرة على الرمل الناعم، ومداعبة نهديها القاسيين (لكن كانا نهدين بكرين، وهما على كل حال نهدا بنت صغيرة) وامتلاك جسدها الدافئ، جسد الزنجية.

وسارع في خطاه، لأن الزنجية الصغيرة كانت تبتعد عن الطريق التي تجتاز الرمال، للدخول في هذه الرمال، مبتعدة، أي الفتاة، عن مراكز الإضاءة. ولكن حين لاحظت أن بيدرو بالا يصبح في كل مرة أقرب إليها، انطلقت إلى الأمام، شبه راكضة. وفهم بيدرو أنها ذاهبة نحو إحدى هذه الطرق القائمة وراء المستودع، الضائعة بين الجبل والبحر. وأنها، إذا كانت تجتاز ناحية الرمال، فذلك لتقصير الطريق، والفرار منه بسهولة أكثر. كان الصمت يسود المرفأ كله، وزئير الرمل وحده تحت الخطى كان يجعل قلب الزنجية الصغيرة يرتعش من الرعب، وقلب بيدرو بالا ينبض لشدة الشهوة. لكنه، عند كل خطوة، كان يدنو أقرب إليها، وبعد عشر خطوات، سوف يصل إليها. وكان عليها أن تسير كثيراً قبل أن تصل إلى المستودعات القائمة وراء الرمال والطرقات المتاخمة لها. كان بيدرو يبتسم، كاشراً عن أسنانه. مثل حيوان مفترس يطارد في الصحراء حيواناً آخر يريده فريسة له.

وحين كاد يرفع يده ليمس كتفها وليدير وجهها نحوه، راحت الزنجية الصغيرة تركض. فعدا بيدرو بالا إلى الأمام، وأدركها بعد قليل. لكنه كان ينطلق بسرعة كبيرة بحيث أنه اصطدم بها، وتدحرج الاثنان على الرمل. ونهض بيدرو بسرعة،

ضاحكاً، وأصبح قربها، وهي تستعد للنهوض

- لا داعي لوقوفك، يا جميلة، وجهك جيد هكذا

- ماذا تريد مني؟

- لا تنزعجي، إنها السمراء سوف تحدث مللاً

أمسك بذراعها، وقلبها ثانية على الرمل واجتاحها الخوف مجدداً، خوف مجنون. كانت قادمة من بيت جدتها، وعائدة إلى بيتها، حيث تنتظرها أمها وإخوتها. فلماذا تأخرت حتى الليل، ولماذا جازفت بالسير على رمال المرفأ؟ ألم تكن تعلم أن رمال الميناء هي سرير الحب لجميع اللصوص، وجميع البحارة، وجميع «فرسان الرمال»، وجميع الذين لا يستطيعون أن يحصلوا على امرأة في ظروف طبيعية، والذين يتعطشون إلى جسد في مدينة باهيا المقدسة. لم تكن تعرف شيئاً من هذا، كانت بالكاد في الخامسة عشرة من العمر. وكانت قد سمعت سمع النساء منذ زمن وجيز. وبيدرو بالا كان هو أيضاً بالخامسة عشرة، ولكن منذ زمن طويل أصبح يعرف ليس فقط الرمال وأسرارها، بل أيضاً جميع أسرار الحب، وذلك لأنه إذا كان الرجال يعرفون هذه الأسرار قبل أن تعرفها النساء، فإن «فرسان الرمل» كانوا يعرفونها قبل أي رجل آخر. كان بيدرو بالا يريد الفتاة لأنه، منذ زمن طويل، كان يحس رغبات الرجل، وكان يعرف مذاقات الحب. وهي لم تكن تريد ذلك لأنها أصبحت امرأة منذ زمن قليل، وهي تسعى لأن تكرس جسدها لخلاصي تتمكن من الحصول على حبها. ولم تكن تريد تسليم نفسها هكذا لأول عابر طريق تلتقي به على الرمل. وظلت عيناها مطفأتين من الخوف. وأمر بيدرو بالا يده على شعر الزنجية الصوفي

أنت «شفة رائعة» يا سمراء. سوف نصنع نحن الاثنين ولداً صغيراً جميلاً وصارعت بلا جدوى عنه

- دعني، دعني أيها البائس

وراحت تنظر حولها ترى إذا كان هناك شخص تستنجد به، وتستطيع أن تطلب عونه، شخص يساعدها للاحتفاظ بهذه البكارة التي قيل لها إنها ثمينة. ولكن، في الليل، على رمل ساحل باهيا، لا يرى شيء، باستثناء الأشباح، ولا تسمع سوى تنهدات الحب. وتسقط أجساد متعانقة على الرمل

أخذ بيدرو بالا يداعب ثدييها، وكانت هي، من أعماق الرعب، تحس بشوء خيط من الرغبة. مثل خيط ماء يجري عبر حبال، وتمضي متزايداً، شيئاً فشيئاً إلى أن يتحول إلى نهر قوي. وهذه الرغبة زادت من رعبها. فإذا لم تتصلب ضد الرغبة، واستسلمت



للامتلاك، حينئذ سوف تفقد كل شيء. وستترك على الرمل بقعة من الدم ستفضحها، ستمحوها مياه البحر في صباح اليوم التالي. إن رصوح صدمتها منحها تجدد وقوة، وقدرات جديدة. حفضت رأسها، وعضت يد بيدرو الذي كان يمسك ثدييها. أطلق بيدرو صرخة، وسحب يده، ونهضت هي وراحت تركض. لكنه أدركها، والآن أصبحت رغبته ممزوجة بالغضب

- سوف ننتهي من قصة هذا الشيء الذي لا يطاق. وحاول أن يطرحها

- دعني أذهب، يا شقي الحظ. أنت تريد أن تحدث لي شقاء. بائس يا ابن أمك الحقير. دعني أذهب، فأنا لا علاقة لي بك

كان بيدرو لا يحب. كان يعرف أخريات يتظاهرن بالرفض، بصورة عامة لأنهن كان لهن عشاق ينتظرونهن ولم يعترض، لحظة واحدة، أن الزنجية الصغيرة كانت عذراء. لكنها كانت تقاوم، وتثقله بالشتائم، وتعضه، وتضرب بيديها الضعيفتين صدر بيدرو بالا

- ولكن ماذا تظنين، أيتها الزنجية؟ هل تعتقدين أني سأدعك تهربين دون أن تستسلمي؟ لا تعاندي. إن رجلك لن يعرف أي شيء. ولا أحد سيعرف أي شيء وستزين من بعدي عناق رجل حقيقي

أخذ الآن يحاول مداعبتها. كان يريد أن يسيطر على غضبها، ويجعلها تحس بالرغبة. كانت يداه تنزلقان على جسدها، ويمددها بالقوة. والآن أخذت تردد مثل لازمة

- دعني أيها البائس، دعني

وشعر بثورتها البائسة، ثورة هادئة، وظهرت ساقا الزنجية الملساوان لكن إحداهما كانت على الأخرى، وحاول بيدرو بالا أن يباعد بينهما. ورحت الزنجية الصغيرة تقاوم من جديد، ولكن نظراً لأن الإعلام كان يداعبها، ولأنها كانت تحس بصعود الرغبة العارم، كفت عن شتمه، لكي تتوسل إليه برجاء قلق

- دعني، إني عذراء، كن طيباً ولا تمتلكني. سوف تجد امرأة سواي. أنا بكر، وسوف تؤلمني

نظر إليها، كانت تبكي من الخوف. وكف عنها لأن إرادتها كانت تضعف، وبقيت حلمتا ثدييها

- أنت عذراء؟ هل هذا صحيح؟

- أقسم على ذلك بالله، وبالعذراء مريم، وأخذت تقبل أصابعها موضوعة بشكل صليب

تردد بيدرو بالا

نهد الزنجية الصغيرة منتصبان، وساقاها الصلبتان، وحصتها الفرح

هل تقولين الصحيح؟

ـ الصحيح أن تقسم على ذلك دعني أذهب أمي تنتظرني

كانت تبكي. وبيدرو يحس بالألم لكن الرغبة كانت قد سيطرت عليه وحينئذ اقترح همساً على الزنجية (وكان لسانه يلدغه)

ـ فقط من الخلف

ـ لا، لا

ـ ستظلين عذراء تماماً أمر بسيط

ـ لا، لا هذا يسبب الألم

لكنه كان يلاطفها، وارتعش جسدها كله برعشة رعب حينئذ بدأت تفهم أنها إذا لم ترضه كما طلب، فستفقد بكارتها وحين وعدها، كان لسانه يهجهج في أذنها

ـ إذا حدث ذلك لك الآن، فسوف انسحب واقفاً

ـ اتقسم أن ذلك لن يكون من الأمام؟

ـ اقسم

ولكن بعد أن قضى وطره منها أول مرة (وقد صاحت، وعضت يديها) وإذ رأى أن الزنجية ما زالت مستسلمة له، حاول أن يفض بكارتها لكنها أحست بذلك فوثبت مثل مجنونة

ـ أتكشف أيها الدنس تمتعت مني هل تريد إنزال مصيبة بي؟

وراحت تبكي بصوت عال، ورفعت ذراعيها، حتى شبهت مجنونة، كانت صيحاتها، ودموعها، وشتائمها ضد رغيم الرمال، تشكل دفاعها الوحيد ولكن بالنسبة لبيدرو، كان أكبر دفاع للزنجية هو هاتان العينان المغمضتان بالرعب، عما حول أضعف، ليست لديه قوة للدفاع عن نفسه ونظراً لأن الشطر الأساسي من شهوته قد أرضي، ونظراً لأن قلق بداية الليلة هذه قد استولى عليه من جديد، فقد قال لها

ـ إذا تركتك، هل تعودين غداً؟

ـ سأعود، نعم

ـ لن أفعل لك إلا ما فعلته اليوم وسأتركك عذراء



هزت رأسها بالإيجاب كانت عيناها عينا مجنونة وفي هذه اللحظة لم تكن تحس إلا بالألم، وبالرعب وبرغبة في الفرار والآن، حين لم تعد يداه، ولا شفتاه، ولا قضيب بيدرو تلامس جسدها، فقد اطمأنت رعشتها، ولم تعد تفكر إلا بحماية بكارتها وتمتمت بالصعد، حين قال لها

ـ إذن، تستطيعين الذهاب ولكن إذا لم تعودي في الغد حين سأقص عليك سترين بأي حس تربط العمره

أخذت تسير، دون أن تجيب بشيء لكن الغلام لحق بها.

ـ سأرافقك، لكي لا يعترض سبيلك لص ما

سارا معاً، وأخذت تبكي كان يريد أن يمسك بيدها، لكنها منعته، وابتعدت عنه حاول مجدداً ومجدداً سحبت يدها حينئذ صاح

ـ ماذا بحق هذا، بحق الشيطان!

وسارا واليد باليد كانت تبكي، وهذا لكي، اثار قلق بيدرو بالا، مجدداً تفقه في ساعات الليل الأولى، ورؤى ابنه الذي سقط في الصمال، ورؤى لامه ميولو التي علمت بعه لانتقام وراح يلعن في دخيلته هذه الزنجية، وأسرع في خطاه، للوصول في أسرع وقت إلى مدخل الطريق كانت تبكي بمرارة، فقال لها في عصب.

ـ ماذا حدث لك؟ لم يحدث لك شيء

كتفت بالنظر إليه وكانت عيناها (مع أنها كانت ما تزال تسير إلى جنبه، وأنها ما زالت مرتعبة) مفعمتين بالسخط، والازدراء خفض بيدرو رأسه، ولم يعد يدري ما يقول ولم يعد في قلبه لا الرغبة ولا الغضب، بل فقط الأسى وسمع خفيفاً ما كان يحس نفسه في الشارع واشتد بكاؤها، وراح هو يضرب الرمل بقدميه الآن كان يحس بأنه أكثر ضعفاً منها، وكانت يد الزنجية الصغيرة تثقل يده، وكأنها من رصاص بترك اليد فابتعدت الفتاة عنه، فلم يصح كان يتمنى لو أنه لم يلتق بها ولو أنه لم يلتق بها ذلك اليوم، ولو أنه لم يذهب إلى حي غاسوا

ووصلا إلى الطريق، وقال لها

الآن تستطيعين الذهاب لن يسيء إليك أحد ونظرت إليه مجدداً بسخط، وراحت تركض ولكن عند أقرب زاوية من الطريق، توقفت، والتفتت نحوه، (وكان ما يزال ينظر إليها) وانهالت عليه بالشتائم واللعنات، بصوت ملأه خوفاً

ـ فليرافقك الطاعون والجوع والجرب، أيها الشقي وليعاقبك الله، أيها الشقي، يا ابن الخطيئة، الدنس، البائس كان صوتها المعربد يعبر الطريق، ويثير قلق بيدرو بالا

أما هي، فقبل أن تختفي عند منعطف الشارع، بصقت على الأرض، في ازدراء شديد جداً وكررت قائلة

- شقي شقي

لبث ساكناً في البدء، ثم انطلق راكضاً عبر الرمال. وكان منطلقاً كأن الرياح تسوطه. وكأنه يفر من لعنات الزنجية الصغيرة. وكان يحس برغبة في الارتماء في البحر لكي يغسل نفسه من كل هذا القلق، وبالرغبة في الانتقام من الناس الذين قتلوا أباه، بما العصا التي يحس بها ضد المدينة لعينيه، التي كانت تمتد في الجانب الآخر من البحر، في أحياء «الحاجر»، و«النصر»، و«النعمة». ويأس حياته كولد مشرد، تخلى عنه أهله، ولد مطارد (ماسح الرأس)، والألم الذي كان يحس به إزاء الزنجية الصغيرة المسكينة، التي هي ولد أيضاً

«ولد، هي أيضاً». هذا ما كان يسمعه في صوت الرياح، وفي السامبا التي يغنيها رجل مجهول، وصوت يقول ذلك في نفسه



# مغامرة أوغون

في ليلة أخرى، ليلة شتوية قاتمة، لم يكن الصيادون خلالها يغامرون بركوب البحر، لشدة غضب يماغا وكسانغو، في حين كانت ومضات البرق هي الضوء الوحيد في السماء الملبدة بغيوم ثقيلة وسوداء، ذهب بيدرو بالا، و«دورا الرجل الرخوة»، وجواو غرانديه، لمرافقة الماي - دي - سانتو دون آنينيها، إلى منزلها البعيد. وكانت قد جاءت إلى المستودع في فترة بعد الظهر طالبة منهم خدمة ما، وفي حين كانت توضح ما تريد، حل الليل، مذهلاً ورهيباً.

- لقد غضب أوغون. قالت الماي - دي - سانتو هذه موضحة.

وهذا هو السبب نفسه الذي قادها إليهم. وأثناء مداهمة الشرطة لأحد المعابد - الذي، وإن كان ليس هو معبدها، لأنه ما من شرطي يتجاسر لمداهمة معبد آنينيها - فهو موضوع تحت حمايتها - استولت الشرطة على صورة أوغون، التي كانت موضوعة على مذبح معبده. وقد استخدمت دون آنينيها كل سلطتها لدى أحد الحراس لكي تستعيد القديس. ثم لقد ذهبت إلى منزل ساد في كنيسة الطب، صديقها، الذي كان يأتي لدراسة الدين الزنجي في معبدها، فدسته إليه إعادة إلهه. وكان البروفيسور يعتقد تماماً أنه سيحصل من الشرطة على إعادة الصورة، ولكن لكي يضيفها إلى مجموعته من الأوثان الزنجية وليس لإعادتها إلى مذبحها في المعبد البعيد. هذا السبب. ولأن أوغون كان في غرفة المعتقلين في مركز الشرطة. فإن كسانغو، في تلك الليلة، كان يطلق بروقه العاصفة. وفي النهاية جاءت دون آنينيها إلى حيث يقيم «فرسان الرمال»، أصدقاؤها منذ زمن طويل، لأن جميع الزنوج، وجميع فقراء باهيا هم أصدقاء الماي - دي - سانتو. وكان لديها لكل منهم، كلمات ودية وأمومية. إنها تشفي المرضى، وتجمع العشاق، ورقى سحرها تقتل الأشرار. وأوضحت ما حدث لبيدرو بالا. لم يكن زعيم «فرسان الرمال» يرتاد المعابد الشعبية كما أنه لم يكن يصغي إلى دروس الأب جوزيه بيدرو. لكنه كان على حد سواء، صديق الكاهن، وصديق الماي - دي - سانتو، وعند «فرسان الرمال»، حين كان هناك صديق، يخدمون هذا الصديق

والآن كانوا يرافقون آنيها إلى مسرها كان الليل حولهم مضطرباً ومفعماً بالعصب وكان المطر يحني اجسامهم تحت مظلة الماي - دي - سانتو البيضاء الكبيرة وكنت صول المعابد الشعبية تدق بايقاع لرد الاهانة التي الحقت بأوغون، وربما في أحد هذه المعابد، أو في العديد منها، كانت أومولو تدعو بانتقام الناس الفقراء وتابعت دون آنيها بصوت مرير.

- إنهم لا يدعون الفقراء يعيشون وهم لا يتركون اله الفقراء في سلام. الفقير لا يستطيع أن يرقص، ولا أن يرتل لآلهه، ولا أن يطلب نعمة من إلهه

كان صوتها مريراً صوت لم يكن يبدو أنه صوت ماي - دي - سانتو دون آنيها. وتابعت تقول إنهم يكتفون بترك الفقراء يموتون من الجوع فالآن ينتزعون القديسين من الفقراء ورفعت قبضتها

احس بيدرو بالا بموجه تعصف في دخيلته. لم يكن الفقراء يملكون شيئاً كان الأب خوزيه بيدرو يقول ان الفقراء، سيذهبون في يوم من الأيام الى ملكوت السماوات، حيث سيكون الله واحداً بالنسبة للجميع. لكن عقل بيدرو بالا الفتي لم يكن يجد أية عدالة في عدد: في مملكة السماوات الجميع سيكونون متساوين. لكنهم على الارض ليسوا كذلك فكفة الميزان تميل دائماً إلى جانب معين

نشيد من أنغام الاغوغوات والأتاباكات[21] التي كانت ترد الاهانة الملحقة بأوغون، كانت لعنات ماي - دي - سانتو دون آنيها تملأ الليل وكانت دون آنيها ذات القامة الطويلة والنحيفة، تمثل نموذجاً ارستقراطياً للزنجية، وكانت تحسن ارتداء ثياب الزنجيات الباهيانيات، افضل من أية امرأة أخرى كان وجهها مرحاً، مع أن نظرة واحدة منها كانت كافية لان توحي باحترام مطلق في هذا. كانت تشبه الأب خوزيه بيدرو لكنها الآن كانت ذات هيئة مفزعة، ولعناتها ضد الاغنياء وضد الشرطة كانت تملأ الليل رهبا. وقبّل بيدرو بالا

وحين تركها، محاطة بـ «بناتها القديسات»، اللواتي كن يقبلن يدها، وعدها بيدرو بالا قائلاً

- لا تهتمي، يا أم دون آنيها غدا سوف اعيد إليك أوغون

(٢١) الاغوغوات والاتاباكات جمع اغوغو وأتاباك، وهما آلتان موسيقيتان يستخدمهما الزنوج في احتفالاتهم الدينية. - ملاحظة من المترجم -



ضربت يدها على رأسه الأشقر، وابتسمت وقبل جواو غراندي و «ذو الرجل الرخوة» يد الزنجية، وهبطوا جميعاً طريق السحن، وكانت الاغوغوات والاتاباكات تصدح لغسل الاهانة التي لحقت بأوغون.

لكن «ذا الرجل الرخوة» من جهته لم يكن يؤمن بأي شيء، لكنه كان يريد خدمة دون آنيها، وسأل

- ماذا ستفعل؟ إن «البصاعة» هي مع الشرطة

صفق جواو غراندي. وقد انتابه خوف ما

- لا تقل عن أوغون إنه «بضاعة» يا «ذا الرجل الرخوة»

ومزح «ذو الرجل الرخوة» قائلاً:

- إنه سجين فهو لا يستطيع أن يفعل أي شيء

صمت جواو غراندي، دهشاً لأنه كان يعلم أن اوغون قوي جداً، وانه، حتى وهو في السجن، يستطيع أن يعاقب «ذا الرجل الرخوة» وحث بيدرو بالا دفعه، وطلب سجارة

- دعني احتفظ بهذه المسألة هناك حسابات يجب أن نؤديها لقد وعدنا دون آنيها والآن يجب أن نقوم بذلك

نزلوا نحو المستودع كان المطر يدخل عبر ثقوب السقف وكان أكثر الغلمان يتكدسون في الزوايا، حيث السقف غير مثقوب وقد حاول «الاستاذ» اشعال شمعته. لكن الريح بدت أنها تلاعبه فكانت تطفئ الشمعة لحظة بعد لحظة وفي النهاية تخلى عن القراءة. و بهت في لعبة «السمة والعصف» مع «القط». الذي كان يشرف على الصندوق، يساعده «الشرب اللطيف» في احدى الزوايا وكانت قطع العملة تتدحرج على الأرض، ولكن لم يكن بوسع اي صوت أن يلهي «سكر الشعير» عن صلواته أمام العذراء مريم، و القديس انطوان

في ليالي الشتاء هذه، لم يكن في استطاعتهم النوم. ولحظة بعد أخرى، كان وميض برق يضيء المستودع، وحينئذ كانت تظهر الوجوه النحيلة والقذرة لـ «فرسان الرمال» وكان كثيرون منهم صغاراً، بحيث أنهم كانوا يخافون التماسيح والمسوخ الأسطورية وكانوا يلوذون بالاكبر منهم سناً، الذين لم يكونوا يخافون سوى البرد والنعاس والجوع، وهم متزوجون، كانوا يسمعون عبر دوي الرعد، صوت كسامبو ونالسة للجميع، كانت ليالي العاصفة هذه، رهيبة مفزعة وحتى «القط»، الذي كان لديه صدر امرأة يريح عليه رأسه الصبياني، كانت ليالي العاصفة ليالي سيئة لأنه في

هذه الليالي، كان رجال ـ في المدينة ليس لديهم لكي يريحوا رؤوسهم الخائفة، سوى سرير رجل غريب، وهم يريدون اغراق رعبهم في صدر امرأة ـ في هذه الليالي، كان رجال يدفعون المال ليناموا مع «دالفا»، ويدفعون جيداً. وهكذا، ظل «القط» في المستودع، مخبياً الصندوق، مع أوراقه المربعة، يمارسه في الشمش «الشارب اللطيف». كانوا يجلسون كلهم، مجتمعين قلقين، لكنهم كانوا وحدهم مع ذلك، يحسون بأنه ينقصهم شيء ما، وليس فقط سرير دافيء في غرفة مقفلة جيداً، بل أيضاً الكلمات الحنون من أم أو من أخت، تذيب خوفهم. كانوا يتجمعون مكدسين بعضهم إلى جانب بعض، وبعضهم يرتجف من البرد، تحت قمصانهم وبنطالاتهم الممزقة. وآخرون كانوا يلبسون سترات صغيرة مسروقة، أو ملتقطة عن المزابل، وهي سترات يستعملونها كمعاطف. لكن كان لدى «الاستاذ» معطف كبير جداً، بحيث كان يكنس به الأرض.

في أحد الأيام، وكان ذلك في الصيف، توقف رجل، وكان يرتدي معطفاً كبيراً، ليشرب مرطبات في أحد مطاعم المدينة. كان يبدو أنه غريب. كان ذلك في منتصف فترة بعد الظهر، وكان الحر يشوي الأجساد. لكن الرجل كان يبدو أنه لا يحس بالحر، لابساً معطفه الجديد. واعتبر «الاستاذ» أن منظر الرجل طريف، وقد أعجبه منه بوجه خاص، شكل رأسه الغريب. وبدأ يرسم هذا الرجل (مع معطف هائل الضخامة، أكبر من الرجل)، وذلك بالطبشور، على الرصيف. وكان «الاستاذ» يضحك بسرور، لأن الرجل، ربما سيعطيه قطعة ذات الألفي ريس. واستدار الرجل على كرسيه، ونظر إلى الرسم، شبه الساهي. وكان «الاستاذ» يضحك إذ كان يرى الرسم ممتازاً، مع هذا المعطف الذي يسيطر على الرجل، ويعلو على أمره. لكن الرجل لم يتذوق المسألة، واستولى عليه غضب شديد، فنهض عن كرسيه، ولبط «الاستاذ» لبطتين. فأصابت إحداهما الغلام في خصره، فتدحرج على الرصيف وهو يئن. ووضع الرجل أيضاً قدمه على وجه الصبي، وقال له وهو يبتعد محتقن الوجه:

- خذ أيها الأزعر، لتتعلم أن تسخر من الناس.

وانطلق وهو يرن النقود في كفه، بعد أن محا الرسم نصف محو. وهرعت الخادمة وساعدت «الاستاذ» على النهوض ونظرت باشفاق إلى الرسم وقالت:

- يا مسكين! رغم أن الرسم مشابه له بالحق!

ودست يدها في جيبها، حيث كانت تحتفظ بما نالته من بقشيش، وأخرجت قطعة ألف ريس. وأرادت أن تعطيها لـ «الاستاذ» لكنه رفضها، كان يفكر أنه بحاجة



إليها، لكنه لم يستطع أخذها، وأخذ يتأمل في الرسم شبه الممحو، وتابع طريقه، ويداه على جنبيه. كان يسير دون أن تراوده أية أفكار، وبغصة في صدره. لقد أراد الرجل، الرجل، أن يستحق قطعة نقود منه. وقد تلقى لبطتين. وكلمات فظة. لم يكن يفهم لماذا هم مكروهون هكذا في المدينة؟ إنهم أولاد فقراء، بدون أب ولا أم. فلماذا يكرههم هكذا أولئك الرجال ذوو الملابس الجيدة؟ مشى يرافقه ألمه، وبكى. حدث أنه التقى من جديد في الصحراء الرملية تحت الشمس، على طريق المستودع، بعد فترة قصيرة، بالرجل ذي المعطف. كان يبدو أنه يبحث عن احدى الصور البراقة في المرفأ. وكان، الآن، يحمل معطفه على ذراعه، ذلك لأن الشمس كانت محرقة. استل «الاستاذ» سكينه (وكان نادراً ما يستعمله) واقترب من الرجل. وكان هذا قد ابتعد عن الرمال، خجل الناس. وكان الرجل ذو المعطف يمر عبر الرمال، ليقصر الطريق المؤدية إلى المرفأ. والتمس «الاستاذ» في صمت وراء الرجل، وحين أصبح قريباً منه، انتصب أمامه، وفي يده السكين. إن مجرد رؤية الرجل قد حولت متاهة مشاعره إلى شعور وحيد بالانتقام. ونظر إليه الرجل مرتعباً. كان «الاستاذ» يفكر في مواجهته، وسكينه في يده. وهمس من بين أسنانه:

- ليلك عني، أيها اللص

تقدم «الاستاذ» مع سكينه، وامتقع وجه الرجل

- ماذا يعني هذا؟ ماذا يعني هذا؟ وراح ينظر في كل ناحية، آملاً بأن يرى ظهور شخص ما. وبكى على رصفة المرفأ البعيدة، كان يرى رجالاً بعيدين أيضاً. حينئذ راح الرجل ذو المعطف يجري لكن «الاستاذ» وثب عليه وطعن يده بسكينه، فألقى الرجل معطفه على الأرض، وكان الدم يسيل من يده على الرمل. وانطلق «الاستاذ» في اتجاه معاكس. وبعد لحظة لا يدري ماذا يفعل. من يبحث جارس أن يظهر، ثم سيصل له حراس كثيرون. يشتركون في مطاردته مع الرجل. وإذا كانت طعنة الرجل ستحجر فوراً، فإن كل شيء سيكون على ما يرام. وستكون المطاردة قصيرة الأمد. ولكن إذا تأخرت السفينة في الرحيل، فسيطارده الرجل بالتأكيد، إلى أن يدركه، ويودعه السجن. وحينئذ تذكر «الاستاذ» الفتاة خادمة المطعم، فالقفه عنوه، ومن الحديقة المواجهة للمطعم، أشار إلى الفتاه بأن تأتي. فركضت الفتاه نحوه، وفهمت بسرعة حين رأته ومعه المعطف. وحذرها «الاستاذ»

- هناك جرح في يده

ضحكت الفتاه

ـ لقد استقبلت أليس كذلك؟ وأخذت المعطف إلى المطعم، ووضعته في مكان أمين، واختفى «الأستاذ»، إلى أن عرفت القصة. لكن «الأستاذ» كان يتابع من مكانه، حركة الحرس عبر الزمان، وفي الطرقات المجاورة. على هذا النحو حصل «الأستاذ» على المعطف، الذي لم يرد بيعه أبداً. بعد كسب معطفاً، وكثيراً من القصص. وبعد ذلك بأعوام، حتى أدهشت لوحاته الجدرانية الكبيرة، البلاد (كانت تمثل موضوعات عن حياة أولاد مشردين، ومبشرين كبار السن، وشغيلة وعمال مرفأ يقومون بهدم السجون)، وقد لوحظ أن النور حواريين الضخام الأجسام، كانوا يظهرون دائماً في رسوم «الأستاذ»، مرتدين معاطف ضخمة، تتمتع بشخصية أكثر من لابسيها. دخل بيدرو بالا، وجواو غراندي، و«ذو الرجل الرخوة» إلى المستودع، واتجهوا نحو الجماعة التي كانت تلعب حول «القط». وحين وصلوا توقف اللعب لحظة، وألقى «القط» نظرة على الثلاثة

ـ هل تلعبون لعبة السبعة والنصف؟

فأجاب «ذو الرجل الرخوة»

ـ وهل نحصل على شيء منه؟

جلس جواو غراندي يراقب. وابتعد بيدرو بالا مع «الأستاذ» إلى إحدى الزوايا. كان يريد إيجاد وسيلة لانتزاع صورة أوغون من الشرطة. وتناقشا قريباً من الليل، وكانت الساعة الحادية عشرة تدق، حين خاطب بيدرو بالا، قبل خروجه جميع «فرسان الرمال»

ـ أيها الأصدقاء، سوف ترون أنا بضربة قوية. فإذا لم أحضر إلى هنا غداً صباحاً فسأكون في المخفر، وسوف يدفعونني لكي أعمل في دار الإصلاحية. سوف أمر وأنكم ستقومون بإخراجي من هناك

وخرج ورافقه جواو غراندي حتى الباب، وانضم «الأستاذ» مجدداً إلى «القط». كان الغلمان الأصغر سناً ينظرون إلى رحيل زعيمهم بشيء من الخوف. لقد وضعوا في بيدرو بالا ثقة كبيرة، وبدونه، كثيرون منهم لا يعرفون كيف يتدبرون أمورهم. وخرج «سكر الشعير» من زاويته، قاطعاً صلاته

ما هي المسألة؟

ـ ذهب بيدرو للقيام بمهمة صعبة، فإذا لم يعد في الغد، فذلك يعني أنه قد قبض عليه

ـ سوف نخرجه من السجن! هكذا قال «سكر الشعير» بلهجة طبيعية، وما كان



يمكن أن يقال إنه قبل دقائق كان يصلي، أمام صورة العذراء، لخلاص روحه الصغيرة، روح اللص. وعاد إلى قديسيه، ليصلي من أجل بيدرو بالا

واستؤنف لعب الورق. في الخارج كان المطر وومضات البرق، والرعد والسحب في السماء، كان برد شديد يسود المستودع. وقطرات من الماء تتساقط على الأولاد الذين كانوا يلعبون. لكن اللعب، الآن لم يعد يستأثر باهتمامهم، و«القط» هو نفسه كان ينسى أن يكسب، وفي المستودع كان يسود نوع من الارتباك. وقد استمر ذلك إلى أن قال «الأستاذ»

ـ سوف أذهب لأرى ماذا يحدث

وقد رافقه جواو غراندي، و«القط». في تلك الليلة، كان «سكر الشعير» هو الذي رقد عند باب المستودع، والخنجر تحت رأسه. وقربه، كان «ذو الكوع الناشف» يسبر غور الظلام بوجهه القاتم. وكان يتساءل أين يمكن أن يكون، في هذا الليل المظلم، جماعة لامبيو. ربما كانت، في هذا الليل العاصف، تقاتل الشرطة كما سيفعل بعد قليل بيدرو بالا. وكان «ذو الكوع الناشف» يعتقد بأن بيدرو بالا حين سيصبح من الرجال، سيكون مثل شجاعة لامبيو. كان لامبيو سيد البر الداخلي، وسيد السهوب التي لا نهاية لها. وسيكون بيدرو بالا سيد المدينة، والمرافئ والشوارع، وأرصفة الميناء. وأن «ذا الكوع الناشف» الذي هو من البر الداخلي، يستطيع أن يمضي عبر السهوب، وعبر المدن، لأن لامبيو كان عرابه، وبيدرو بالا صديقه. وقد صاح الذئب، وكانت تلك إشارة إلى أن «ذا الكوع الناشف» كان سعيداً

حين كان بيدرو يرقى جانب الجبل، كان يستعيد ذهنياً خطته. لقد وضعها بمساعدة «الأستاذ». ومن بين جميع العمليات التي جازف بها، كانت العملية الحالية أكثرها خطراً. لكن الدون آنينها تستحق أن يتعرض هذه المجازفة من أجلها. فحين كان يمرض أحدهم، كانت تحضر الأدوية المصنوعة من أوراق النبات، وتعتني به، وفي كثير من الأحيان تشفيه. وحين كان يظهر في أرضها غلام من «فرسان الرمال»، كانت تعامله كرجل، وتعطيه أفضل ما عندها من طعام وشراب. كانت الخطة مجازفة، وربما لن تعطي أية نتيجة. وبيدرو بالا، بعد أن يذوق السجن بضعة أيام، سينتهي به الأمر إلى الإصلاحية، هناك حيث الحياة أشد سوءاً من حياة الكلب. ولكن كانت هناك فرصة لأن تنجح الخطة. وسيلعب بيدرو بالا لعبة الكل بالكل على هذه الإمكانية

ووصل إلى ساحة «المسرح». كان المطر يهطل، ورجال الشرطة يتقون المطر بمعاطفهم. وراح بيدرو يرتقي على مهل، طلعة ساو ـ بنتو، وسط الطريق نحو ساو

بيدرو، وجتاز ساحة «السداد»، وسلك شارع روزاريو؛ والآن أصبح أمام «المركز الرئيسي للشرطة». راقب السور وتحرك رجال الشرطة، والمفتشين الذين كانوا يدخلون ويخرجون بين دقيقة وأخرى، كان يمر ترام، دافعاً القضبان الحديدية إلى الضرير، وآتياً من ساحة الشارع المضاء صلاً. وقد اسعد الحارس وهو صديق دون أن يدري. كان «أوغون» موجوداً في قاعة المفتشين، ملقى على خزانة، في وسط أشياء أخرى مسروقة، صودرت أثناء مداهمات متفرقة قامت بها الشرطة لمنازل اللصوص. وفي هذه القاعة، كان يوضع أولئك الذين اعتقلوا أثناء الليل، قبل أن يجري استجوابهم سواء من قبل المفوضين، أو من قبل مفوضي الخدمة، والذين يجري إرسالهم بعد ذلك إما إلى السجون، وإما إلى الشارع (أي يطلق سراحهم). وهناك، في زاوية، في البداية، في خزانة كانت تمتلئ بسرعة، ثم إلى جانبها أو فوقها، كانت توضع أشياء غير ذات قيمة، جرت مصادرتها أثناء مداهمات رجال الشرطة. وكانت خطة بيدرو بالا تقوم في أن يقضي الليل، أو شطراً منه، في قاعة المعتقلين، والخروج (إذا استطاع الخروج) حاملاً تمثال الأم أوغون. وكانت لدى بيدرو بالا أعصبية كبيرة. كان مجهولاً لدى الشرطة. وبالإضافة إلى ذلك، كان عدد قليل جداً من الحراس يعرفونه كمشرد في الشارع. رغم أن جميع الحراس، وحتى بعض المفتشين، يرغبون بشدة في القبض على زعيم «فرسان الرمال». وكانوا يعرفون عنه فقط أن في وجهه ندبة، وأمر بيدرو بالا يدل على هذه الندبة. لكنهم كانوا يظنونه أطول قامة، مما هو في الواقع، وكانوا يعتقدون أن بيدرو بالا هو خلاسي، وأكبر سناً. وإذا ما توصلوا لمعرفة زعيم «فرسان الرمال»، فإنهم لن يرسلوه إلى الإصلاحية، حيث يسهل الفرار، بل سيرسل إلى السجن، حيث لا يسهل الفرار على كل حال.

سار بيدرو بالا حتى كامبو غرانده. لكنه لم يعد يسير بتلك الخطوة اللامبالية، خطوة لص شوارع المدينة. بل كان يمضي الآن وهو يترنح مثل ابن عامل. وقد أسدل كمكمه على عينيه بسبب المطر، والعاقبة سترته السوداء (كان صاحبها في الماضي، رجلاً طويل القامة).

كان الحارس يقف تحت شجرة بسبب المطر. واقترب منه بيدرو بالا. كان يبدو خائفاً. وحين خاطب الحارس، كان صوته صوت ولد خائف من ليل المدينة العاصف.

- سيدي الحارس

نظر إليه الحارس

- ماذا تريد، أيها الغلام



- أنا لست من هنا. أنا من مارغراندي. وقد جئت مع والدي اليوم

لم يدعه الحارس يكمل كلامه. بل قاطعه:

- وماذا تعمل هنا، يا صبي؟

- لست أدري أين أنام. أود أن تسمح لي بالنوم عند الشرطة

- مقر الشرطة ليس فندقاً، أيها الأزعر. هيا، اذهب من هنا، اذهب. وأشار إلى بيدرو بالابتعاد

حينئذ حاول بيدرو إتمام المحادثة، لكن الحارس هدده بهراوته

- اذهب ونم في حديقة. اذهب من هنا

ذهب بيدرو وعلى وجهه غم وألم. وسمر الحارس يرصد الغلام. وتوقف بيدرو عند محطة الترام، وبقي ينتظر. لم ينزل أحد من الحافلة الأولى، ولكن من الحافلة الثانية نزل زوجان. انقض بيدرو بالا على المرأة ورأى الرجل أن الغلام يريد أن يخطف محفظتها. فأمسك به من ذراعه. وكان أنه يقوم بالعمل بصورة سيئة، بحيث لو رآه أحد من جماعة «فرسان الرمال» لما عرف أن هذا الغلام هو زعيمهم. وكان الحارس الذي تابع المسألة قد وصل إليهم.

- إذن، على هذا النحو أنت لست من هنا. أيها اللص الصغير

وابتعد، قابضاً على بيدرو بالا من ذراعه. كان الغلام يسير ووجهه نصف خائف، ونصف ضاحك

- لقد فعلت هذا لكي تقبض علي.

- ماذا؟

إن كل ما قلته، هو الحقيقة. إن والدي بحار، ولديه زورق في مارغراندي واليوم، تركني هنا، ولم يعد بسبب العاصفة. وأنا لا أدري أين أنام. لقد طلبت النوم في المخفر، وأنت لم ترد ذلك. وحينئذ تظاهرت بأنني سأسرق امرأة وذلك فقط لكي تقبض علي. والآن، لدي مكان أنام فيه

- ونوم طويل

كان ذلك هو الجواب الوحيد للحارس. ودخلا إلى مركز الشرطة. واجتاز الحارس رواقاً، وترك بيدرو بالا في غرفة المعتقلين. كان فيها خمسة أو ستة رجال وقال الحارس مرحاً:

- الآن تستطيع النوم. نم أمامك الحجر. وبعد ذلك، حين سيأتي المفوض، سترى كم من الزمن ستنام هنا

لزم بيدرو الصمت ولم يعر المعتقلون الآخرون أي انتباه، وكانوا يهتمون أكثر بكثير بشخص لوطي قبض عليه، وهو يقول إنه يدعى «ماريبيت». وفي إحدى الزوايا، شاهد بيدرو الخزانة وكانت صورة «أوعون» على جانبها، قرب سلة الورق. وفي حين كان الآخرون يتحادثون، لف تمثال أوعون (لم يكن كبيراً، وكان هناك تماثيل أكبر منه بكثير) في سترته، وتمدد على الأرض ووضع يده على الرزمة، وتظاهر بالرقاد.

استمر معتقلو تلك الليلة يسخرون من اللوطي، باستثناء رجل عجوز كان يرتعد في زاوية. كان بيدرو يجهل ما إذا كان بكاء الرجل من البرد أم من الخوف. لكنه سمع صوت زنجي شاب يقول لـ «ماريبيت»:

- من الذي فض بكارتك؟

- آه، دعني. هكذا أجاب اللوطي ضاحكاً.

وقال الآخرون: لا. تحدث لنا. تحدث.

- آه... إنه سوبولد... آه!

استمر العجوز يرتعد ولاحظه في الزاوية لص أحمر الشعر وجهه.

لماذا لا تلتصق بهذا العجوز؟

هكذا سأل الزنجي الذي كان يعلك تبغاً، الفتى المسمى «ماريبيت».

قال الفتى اللوطي: ألا ترى أنني لا أركض وراء العجائز؟ ثم، هذا بكمي، «... حل عني».

والآن، كان حارس يضحك عند الباب، والتفت الرجل المجدور الوجه عن العجوز الذي انكمش على نفسه.

- أما أنت. فكنت تريد تماماً لو أن هذا الفتى، «ماريبيت» قد درت... أليس كذلك يا عماه؟

- أنا رجل عجوز ولم أفعل أي شيء. هكذا همس العجوز، أكثر من كونه يتكلم. أنا لم أفعل أي شيء، وسيتركونني.

خبر بيدرو الذي كان مغمض العينين، أن الرجل كان يبكي. لكن بيدرو استمر يتظاهر بالنوم. كان تمثال «أوعون» يؤلم رأسه. وواصل المعتقلون يمزحون في صدد الفتى اللوطي والعجوز، إلى أن وصل حارس آخر، قال للعجوز:

- تعال، أيها العجوز... هيا بنا.

قال العجوز مجدداً: لم أفعل أي شيء. إنهم سيتركونني... كان عاطفـ



الجميع، الحراس والمعتقلين، وكان يرتجف بشدة بحيث أن الجميع أحسوا بالألم، وحتى اللص المجدور الوجه، قد غمض عينيه. كان الفتى اللوطي وحده يبتسم.

ثم بعد العجوز، ثم جاء دور الفتى اللوطي وغاب فترة طويلة، وقد وضع الرجل مساحيق لوجه أن «ماريبيت» هو من عائلة طيبة وبالطبع. كان قائد الشرطة يجري اتصالاً هاتفياً بأهله، طالباً أن يحضروا لأخذه. لكي لا يضطر لاعتقاله هذه الليلة وبين حين وآخر، حين يتعاطى كمية كبيرة من الكوكايين، كان يحدث فضيحة في الشارع، ويعتقله أحد الحراس. وحين عاد «ماريبيت»، كان ذلك فقط لأخذ قبعته وحينئذ رأى بيدرو بلا ممدداً على الأرض فقال:

- إنه فتي جداً، هذا الغلام. لكنه جميل جداً. بصق بيدرو، وعيناه مغمضتان، ثم قال:

- اذهب يا لكع!، قبل أن أسحق بوزك.

ضحك الآخرون، وحينئذ فقط، خاطبوا بيدرو.

- ماذا تصنع هنا، يا جرذ الكنيسة؟

- هذا لا يعنيك، يا شجرة السعادين. هكذا أجاب بيدرو الرجل ذا الوجه المجدور.

الحارس نفسه أخذ يضحك، وأوضح للآخرين قصة بيدرو. لكن الزنجي الشاب استدعي بدوره، وبقي الآخرون صامتين. كانوا يعلمون أن الزنجي قد سدد طعنة سكين إلى رجل في مقهى. وحين عاد، كانت يداه متورمتين من الضربات التي تلقاها. وأوضح قائلاً:

- إنهم يقولون إنه سيجري فحص لي بسبب جروح حقيقية... أما هم، فقد سددوا إلي دزينتين من الضربات.

وصمت وبحث عن زاوية. وارتمى فيها. وصمت الآخرون هم أيضاً. وتناوبوا واحداً بعد آخر، حيث كان يستجوبهم المفوض. كان يطلق سراح البعض، والآخرون يرسلون إلى الحبس، وآخرون يعودون وقد أدماهم الضرب. وكانت العاصفة قد هدأت. وكان النهار يشرق. وكان بيدرو آخر من استدعي للاستجواب. وترك السترة التي لف بها صورة «أوعون».

كان المفوض نحيفاً شاباً يتلألأ في إصبعه خاتم مرصع بياقوتة حمراء، وكان يدخن السيجار. وحين دخل بيدرو مع الحارس، كان المفوض يطلب القهوة بصوت عال. ظل بيدرو واقفاً أمام المكتب، ساكناً بلا حراك. وقال الحارس

ـ هذا هو الغلام السارق في كامبو غراندي

أشار المفوض بيده

ـ لنعرف إذا كانت هذه القهوة ستصل أو لا تصل

انسحب الحارس وقرأ المفوض تقرير الحارس الذي اعتقل بيدرو بالا، ثم نظر إلى الغلام

ـ ماذا لديك لتقول؟ ولن تكذب طبعاً.

روى بيدرو بصوت خائف قصة طويلة. قال إن والده صياد في مار غراندي، وأنه، في هذا اليوم بالذات، في الصباح، جاء مع الزورق، واصطحبه. ولكن اثر ذلك، عاد لكي يحضر حمولة ثانية. وتركه في المدينة ينتظره لأن الصياد سيعود مرة ثانية إلى باهيا في فترة بعد الظهر، وحينئذ يستطيع الغلام العودة مع والده. لكن العاصفة هبت، فحالت دون عودة أبيه، وهو، أي الغلام، الذي لم يكن يعرف أحداً، بقي تحت المطر، دون أن يعرف أين ينام. وسأل رجلاً في الشارع أين يمكنه النوم، فقال: في مخفر الشرطة؛ وحينئذ طلب من الحارس أن يصطحبه إلى المخفر، لكن الحارس رفض ذلك. وهو، أي الغلام، تظاهر حينئذ بأنه يريد سرقة امرأة، لكي يقوده الحارس إلى مركز الشرطة، فينام تحت سقفه.

ـ وهكذا فأنا لم أسرق، ولم أفر... هذا ما قاله في ختام الحادثة.

قال المفوض، الذي كان يتذوق قهوة بجرعات صغيرة، في نفسه:

ـ مستحيل أن يختلق غلام في مثل سنه قصة كهذه... وأثر ذلك، ونظر، لأنه كان لدى المفوض ـ محامي ميول أدبية. فقد همس قائلاً: «هذه الحادثة ستكون قصة هائلة» وابتسم بشاشة، وسأل بيدرو:

ـ ما اسم والدك؟

ـ أوغستو سانتوس، وقد اختار اسم بحار معروف في مار غراندي.

ـ إذا كان ما قلته لي صحيحاً، سأطلق سراحك. وإذا تبين أنك تريد خداعي بهذه القصة، فسوف ترى.

ودق الجرس، مستدعياً الحارس. كانت أعصاب بيدرو متوترة جداً. ووصل الحارس، وسأله المفوض ما إذا كان لدى الشرطة سجل بأسماء صيادي مار غراندي، الذين يرسون على رصيف السوق.

ـ نعم يا سيدي، يوجد سجل.

ذهب وانظر إذا كان بين أسماء الصيادين صياد اسمه اوغستو سانتوس. وعد



وابلغني الجواب. ولكن عجل، لأن ساعة خروجي قد اقتربت.

نظر بيدرو بالا إلى ساعة الجدار. كانت تشير إلى الساعة الخامسة والنصف صباحاً. وغاب الحارس بضع دقائق، ولم يعد المفوض يهتم ببيدرو، الذي كان واقفاً، أمام مكتبه. ثم عاد الحارس، وقال:

ـ نعم يا سيدي، هناك صياد يحمل هذا الاسم. واليوم بالذات، كان على أرصفة الساحة، ثم عاد بعد قليل.

أشار المفوض بيده وقال للحارس:

ـ أطلق سراح هذا الأزعر.

سحب بيدرو الآن بأخذ سترته، ووضعها تحت ذراعه، وما كان يعرف أحد أنه يحمل تحت صدرها صورة «أوغون». وحيّا الغلام والحارس برواق محدداً، وتركه الحارس على الباب. واجتاز بيدرو ساحة «المحرومين» ودار حول الكنيسة القديمة، ووصل إلى غاسو دي سيا، والآن انطلق راكضاً لكنه سمع خطى خلفه. كان يبدو أن هناك من يتبعه. ونظر، فإذا بـ «الأستاذ»، وجواو غراندي، و «القط» يركضون نحوه، وانتظر إلى أن وصلوا إليه، وسلّمهم وقد أنهكه الفضول.

ـ ماذا تصنعون في هذا المكان؟

حدث «الأستاذ» رأسه

ـ ألا ترى أننا خرجنا، الآن، في ساعة مبكرة؟ كنا نروح ونجيء هنا، كنا سنعود دون فعل أي شيء، حتى رأيناك وأنت منطلق ركضاً.

وضح بيدرو سترته، وأظهر تمثال «أوغون». وأطلق جواو غراندي ضحكة سرور.

ـ كيف فعلت لتتغلب عليهم؟

نزلوا على الساحل مزلق، بسبب الامطار التي هطلت في الليل. وسار بيدرو بالا مع صحبه، وهو يروي لهم مغامرات الليلة. وسأل «القط»:

ـ ألم تخف حتى قليلاً؟

أراد بيدرو في البدء أن يقول لا، لكنه اعترف قائلاً:

ـ لكي أقول الحقيقة، لقد استولى علي خوف من المصيبة. والمصيبة هي السجن لكنني تخلصت منه. وضحك للملامح الوجه المرتعب، وجه جواو غراندي. كانت السماء الآن زرقاء، صافية، بلا سحب، والشمس تتلألأ. وهناك، من الطيمه، كانوا يرون القوارب التي تخرج من رصيف «السوق».

# حيث يبتسم الله مثل زنجي صغير

كان فصل الربيع رائعاً، كبيراً جداً حتى كان يقال إن هذا لم يظهر لأحد أيام الشتاء. كانت الشمس تصب على الشوارع صفاءً لطيفاً، لم يكن يحرق، بل كان دفئه مثل دفء يد امرأة. وفي حديقة الآباء، كانت الأزهار تتفتح في باقات من الألوان: أزهار الدفلى والورود والقرنفل والذهبيات والصبح. وفي الشارع كان يبدو أن ثمة عطراً لذيذاً رقيقاً إلى أقصى حد. ولكن «سكر الشعير» كان يحس أن هذا العطر ينفذ إلى خياشيمه، ويسكره. وعند باب مرتفعات الأعشاب، أكل نقانق الغداء. كانت ثمة مائدة في حديقتها، والخادمة التي حضرت له الصحن إنها قد قالت وهي تنظر إلى الشارع، وإلى شمس الشتاء، والرجال الذين يمرون بدون معاطف:

- إنه نهار جميل.

هذه الكلمات رافقت «سكر الشعير» في الشارع. كان النهار جميلاً، وكان الأعلام تصفر تمضي غير مبالية، صفواً يلحن تمامه عنه الله «حبيب الله الطيب»، متذكراً أن الأب خوريه بيدرو قد وعد أن يفعل كل ما يستطيعه لإدخاله إلى دير للدراسة والعبادة. لقد قال له الأب خوريه بيدرو أن كل هذا الجمال الهابط، الشامل للأرض والناس، هو هبة من الله، وأنه يجب أن يحمد الله عليه. وراح «سكر الشعير» يتأمل السماء الزرقاء حيث لا بد أن يكون الله الطيب موجوداً، وشكره بابتسامة. كان يفكر في أن الله هو حقاً طيب. ولدى تفكيره في الله الطيب فكر أيضاً في «فرسان الرمال». كانوا يسرقون ويقتلون في الطرقات، ويلعنون ويشتمون، ويجددون الرغبات الصغيرات على الرمال، ويجرحون أحياناً بضربات خنجر أو موسى رجالاً وشرطيين. ومع ذلك كانوا طيبين، وبعضهم أصدقاء بعض. وإذا كانوا يفعلون كل هذه الأشياء، فذلك لأنه ليس لهم أب ولا أم، ولأن حياتهم كانت حياة لا تصلح لهم الرغيف، وكانوا ينامون في مبنى لا سقف له تقريباً. ولو لم يكونوا يفعلون كل تلك الأشياء لماتوا جوعاً، لأنها كانت نادرة المنازل التي تعطي الطعام لواحد منهم، وللآخر تعطي الثياب. والمدينة بكاملها لن تكفي



لإعطائهم جميعاً المأكل والملبس. وفكر «سكر الشعير» بأنهم جميعاً محكوم عليهم بدخول الجحيم، ويبدرو بالا لم يكن يؤمن بوجود الجحيم، وكذلك «الأستاذ» لم يكن يؤمن بذلك. كانا يسخران من «سكر الشعير». إنما جواو غراندي، من جهته، فقد كان يؤمن به، كما يؤمن بـ «أومولو»، وثمة الزنوج الذين جاؤوا من أفريقيا إلى «حبيب الله الطيب»، لدى كل صياد شجاع وراقص مصارع لا مثيل له. كان يؤمن هو أيضاً بآلهة الزنوج، وكان يخلط بينهم وبين القديسين البيض، الذين جاؤوا من أوروبا. وكان الأب خوريه بيدرو يقول إن هذه المعتقدات هي كلها أوهام وترهات، وإن هذا خطأ، ولكن ليسوا هم «فرسان الرمال» مسؤولين عنه. وحزن «سكر الشعير» وسط جمال النهار: إذن، فكلهم محكوم عليهم بدخول الجحيم؟ كان الجحيم مكاناً للعذاب الأبدي، حيث يحترق المحكومون طوال حياتهم، وهذه الحياة لا تنتهي أبداً. وفي الجحيم، يوجد شهداء مجهولون حتى من الشرطة، وحتى من الإصلاحية. وقبل بضعة أيام، أثناء موعظة في كنيسة «لابيداد»، سمع «سكر الشعير» راهباً عالماً يصف الجحيم. وعلى المقاعد، كان الرجال والنساء يتلقون كلمات الراهب الرهيبة وكأنها ضربات سوط. كان الراهب أحمر اللون، والعرق يسيل من وجهه، وكان كلامه مرتبكاً. وعبر هذا الكلام، كان الجحيم يبدو أكثر رهبة أيضاً، ورائحة نتن الأجساد التي كانت جثثاً على الأرض، وقد انصرفت عن الحب، والأيدي كانت رشيقة ماهرة، وقد قامت بالسرقة، وباستعمال الخنجر والموسى. كان الله، عبر خطاب الراهب، هو الله المقاصص الذي يعاقب، وليس الله الطيب للسهرات الجميلة التي يصفها الأب خوريه بيدرو. وإثر ذلك، أوضحوا لـ «سكر الشعير» أن ثمة هو الطيبة المعصومة، والعدالة المعصومة. وعلق «سكر الشعير» حبه لله الطيب بعلاقة من الخوف إزاء الله. ومن الآن فصاعداً، سيعيش «سكر الشعير» مقسماً بين الشعورين. كانت حياته حياة شقية لولد متشرد، تخلى عنه الأهل والناس. وعلى هذا الأساس، كانت حياته تحكم عليه بحياة خطيئة وسرقات شبه يومية، وأكاذيب على أبواب المنازل الأغنياء. وهذا السبب، في جمال هذا اليوم البديع، كان «سكر الشعير» يتأمل السماء بعينيه اللتين وسعهما الخوف، وصعد إلى الله الطيب الطيب جداً (لكنه عادل أيضاً) ليغفر له خطاياه، وخطايا «فرسان الرمال»، رفاقه. ففي البدء، لم تكن غلطة غلطتهم، وكانت خطأ حظ الحياة.

كان الأب خوريه بيدرو يقول إن الخطيئة هي غلطة الحياة. ذلك لأنه كان يعلم أن هذه هي الوسيلة الوحيدة ليضمن لهم حياة مبرأة من الآفات والذنوب. ولكن، بعد

ظهر أحد الايام، حيث كان الأب جوزيه موجوداً هناك، وكذلك عامل الميناء، جان دادام، أعلن هذا أن الغلطة هي غلطة المجتمع السيء التنظيم، وغلطة الاغنياء. وأنه ما دام هذا لا يتغير، فان الأولاد لن يتمكنوا من ان يصبحوا رجال خير. وأضاف أن الأب جوزيه بيدرو لن يتمكن أبداً من فعل أي شيء لأجل الأولاد، لأن الاغنياء سيمنعونه من ذلك. في ذلك اليوم، أحس الأب جوزيه بيدرو بيأس كبير، وحين حاول «سكر الشعير» تعزيته موضحاً له أنه لا ينبغي اعطاء أي انتباه لآراء جان دادام، أجاب الأب وهو يهز رأسه الطويل:

— هناك احيان اتوصل فيها للتفكير بأنه على حق، وأن كل شيء يجري بالمقلوب. لكن الله طيب، وهو سيتمكن من المداواة.

كان الأب جوزيه بيدرو يعتقد أن الله سيغفر. وكان الأب يريد مساعدة الأولاد ولما لم يكن يجد، إن لم يكن الوسائل للتوصل إلى ذلك، فعلى الأقل، مع الأسف، جداراً امامه (كان جميع الناس يريدون معاملة «فرسان الرمال» إما كمجرمين، وإما كأولاد يمثلون الأولاد الذين ربوا داخل بيت، وعائلة) كان الأب جوزيه بيدرو يحس بما يشبه التذمر، حين وجدنا يكون فاقداً الاتجاه، ضائعاً. لكنه كان يأمل في أن الله سيلهمه في يوم من الأيام. وبانتظار ذلك، لم يكن يغيب عن الأولاد، مع محاولته احياناً في ابعادهم عن أعمال شريرة. من كان احد أولئك الذين اسهموا في قطع دابر اللواط في الجماعة. وقد شكل هذا احدى التجارب الكبرى في كيفية معاملة «فرسان الرمال». وطوال ما كان الأب جوزيه بيدرو يردد بأن من الضروري التخلص من اللواط، لأنه خطيئة، ولأنه شيء قذر وبشع، كان الأولاد يسخرون منه خفية، واستمروا في مضاجعة الأولاد الأحدث سناً والأجمل. ولكن، حين قال لهم الأب، يساعده هذه المرة «حبيب المعلم» أن اللواط عمل غير جدير بالرجل، وأنه يجعل الرجل شبيهاً بالمرأة، بل وأسوأ من المرأة، اتخذ بيدرو بالا تدابير قاسية، وطرد مخنثي اللواط السلبيين من الجماعة. وبالرغم من جهود الأب جوزيه بيدرو، لم يقبل بيدرو بالا بعودتهم أبداً.

— اذا عادوا، فستتكسر لقذارة، يا أبت.

وقد انتزع بيدرو بالا اللواط من بيئة «فرسان الرمال» كما ينتزع الجراح زائدة دودية ملتهبة من جسم رجل. وكان الأصعب، بالنسبة للأب جوزيه بيدرو، التوفيق بين الأشياء. لكنه كان يتحسس طريقه، ويتسم أحياناً بارتياح للنتائج. وإن كان جان دادام، رغم كل شيء، يضحك منه، وينادي بأن الثورة وحدها هي التي ستسوي كل هذه الأمور كما ينبغي. وهناك في الأعلى، في المدينة العليا، كان الرجال الاغنياء



والنساء يطالبون بشدة بأن يحبس «فرسان الرمال»، أو أن يجري ادخالهم إلى الاصلاحية، التي هي أسوأ من السجن. وهناك، تحت، على ارصفة الميناء، كان جان دادام يريد التخلص من الاغنياء، وتحقيق المساواة في كل شيء، وإعطاء مدارس للأولاد الصغار. وكان الأب، من جهته، يريد اعطاءهم المنزل والمدرسة، والحنان، والرفاهية، بدون الثورة، وبدون التخلص من الاغنياء. ولكن في كل ناحية، كان يقوم حاجز. كان الأب يحس بأنه ضائع، وكان يطلب إلى الله أن يلهمه. وبشيء من الرعب، حين كان يفكر في هذه المسألة. كان يعطي الحق، حتى دون أن يدري، لعامل الميناء، جان دادام. وحينئذ كان يلومه، اي الخوري جوزيه بيدرو، الخوف، لأن ذلك لم يكن دروس أساتذته، وكان يصلي طوال ساعات لكي ينير الله طريقه.

بين «فرسان الرمال»، كان «سكر الشعير» المكسب الكبير للأب جوزيه بيدرو. وقد كانت له سمعة بصفته أكثر اعضاء الجماعة شراً، وكان يروى أنه في أحد الايام غرس خنجره في عنق غلام لم يرد أن يقرضه نقوداً، وكان يريد غرس خنجره ببطء، دون أن يرتجف، حتى سال الدم، واعطاه الولد كل ما عنده. ولكن يروى أيضاً أنه غرس موسه أيضاً في جسم «شيكو ـ الشحم»، حين كان هذا الخلاسي يحدث هو جارف بالدخول إلى مستودع مطاردة الجرذان. ويوم راح الأب جوزيه بيدرو يتكلم عن الله، والسماء والمسيح وعن الطيبة والتقى، أخذ «سكر الشعير» يتغير. كان الله يناديه، وكان يسمع صوته القوي عبر المستودع. وكان يرى الله في احلامه ويسمع نداءه هذا الذي كان يتكلم عنه الأب جوزيه بيدرو. واتجه بكل كيانه نحو الله، وكان يصلي أمام الصور التي أعطاه اياها الخوري. وفي اليوم الأول، قوس بصفير السخرية في المستودع، فضرب ولداً من الاصغر سناً، وصمت الباقون. وفي اليوم التالي، قال له الأب إنه، أي «سكر الشعير»، قد أساء العمل، وأنه كان عليه أن يتألم من أجل الله. وحينئذ اعطى «سكر الشعير» موسه الحديدة تقريباً إلى الصبي الذي ضربه. وأبداً بعد ذلك لم يضرب أي غلام آخر. وكان يتجنب المجادلات والخلافات، وإذا كان لم يتجنب السرقات، فذلك لأنها كانت وسيلتهم للعيش، بل وسيلتهم الوحيدة. كان «سكر الشعير» يحس بشدة بدعوة الله، وكان يريد أن يتألم من أجل الله. وساعات وساعات، كان يركع في المستودع راقداً على الأرض، وكان يصلي حتى وهو متهالك نعساً. ويهرب من الرغبات الصغيرات اللواتي كن يعرضن عليه مضاجعتهن على رمال ساحل الساحة. لكنه، حينئذ كان يحل الله الطيبة النقية، ويعدم أمله لقاء الآلام التي عانها الله على الأرض. اثر ذلك، جاء ذلك للكشف عن الله. مقاصي، تحقق العدالة،

(بالنسبة لـ «سكر الشعير»، أصبح هذا الإله المنتقم) واجتاح خوف الله قلبه، واختلط
مع حب الله. وأصبحت صلواته أقل طولاً، لكن هول الجحيم يختلط بنعيم الله والنعم
التي يعطيها. كان يصوم أياماً بكاملها. وأصبح وجهه نحيلاً مثل وجه زاهد متنسك.
كانت له عينا صوفي، وكان يعتقد أنه يرى الله عبر ليالي الرقاد. ولذلك كان يبعد
نظراته عن أرداف ونهود الراعيات الصغيرات اللواتي كن يمررن كأنهن يرقصن، على
أنظار الجميع، في أزقة المدينة الفقيرة. وكان يأمل في أن يصبح يوماً كاهناً للإله، وأن
يعيش فقط ليتأمل فيه، وأن لا يعيش إلا من حبه. وكان حب الله يمنحه الأمل في
النجاح وأن الخوف من الله المنتقم من خطايا «سكر الشعير» كان يجعله يائساً من الخلاص.

وهذا الحب، وهذا الخوف، هما اللذان كانا يجعلان «سكر الشعير» يتردد أمام
هذه الواجهة الزجاجية، في ساعة الظهر هذه، الملأى بأحبال الشمس اللطيفة والنيرة،
والأزهار تتفتح في الحديقة، وفي كل مكان يسود الهدوء والسلام. ولكن كانت أجمل
بين جميع الأشياء هذه الصورة للحبل الإلهي، مع الطفل يسوع، التي كانت على رف
هذا الحانوت، ذي الباب الواحد. وفي الواجهة الزجاجية، صور قديسين، وكتب
صلاة ثمينة التجليد، ومسابح ذهبية، وذخيرات فضية. لكن في الداخل، في آخر الرف
الذي يصل إلى السقف، كانت عذراء الحبل تمد الطفل يسوع نحو «سكر الشعير»،
واعتقد «سكر الشعير» أن العذراء تريد أن تعهد إليه بالله الطيب، الله الطفل الصغير
والعاري تماماً، الفقير مثل «سكر الشعير». لقد صنع النحات الولد نحيلاً، والعذراء
حزينة جداً لهزال صغيرها عارضة إياه أمام الأشخاص الطيبين، والأغنياء.
لذلك كان التمثال يبقى في الحانوت، ولا يباع. إن الطفل
يسوع في الصور والتماثيل المعروفة هو دائماً طفل جميل سمين بهيئة
ولد غني. لكن هذا، هو هنا له فقير، ولد فقير، مشابه تماماً لـ «سكر الشعير» ومشابه
أكثر أيضاً للأولاد الأصغر في جماعته، ويماثل بالضبط الولد في المهد، البالغ بضعة
أشهر فقط من العمر، الذي ترك يوماً في الشارع، حيث ماتت أمه من نوبة قلبية، وهي
تحمله بين ذراعيها، والذي أحضره جواو غرانده إلى المستودع، حيث بقي حتى نهاية
فترة بعد الظهر (وكان الأولاد يأتون وينظرون ويضحكون من «الأستاذ» ومن
الزعيم، المنهمكين في تأمين الحليب والماء للطفل الرضيع). حتى جاءت الماي-دي
سانتو أنيسيا، وأخذته معها، مرقدة إياه على صدرها. مع فارق وحيد، هو أن هذا
الطفل هو زنجي، في حين أن الطفل يسوع هو أبيض. وبالإجمال، فإن التشابه كامل
إن له وجهاً باكياً، هذا الطفل يسوع الهزيل والفقير، بين ذراعي العذراء. وهذه تهديه



إلى «سكر الشعير»، والداعات «سكر الشعير»، ولحب «سكر الشعير». وهناك في
الخارج، النهار جميل، والشمس رحيمة، والأزهار متفتحة. ووحده، في هذا النهار،
الطفل يسوع جائع وبردان. إن «سكر الشعير» سيأخذه إلى مستودع «فرسان الرمال»
ويصلي لأجله، ويصغي له، ويعبده بحبه. ألا يظهر للنظر تماماً أنه يعكس جميع
التماثيل والصور، ليس الطفل يسوع محبوساً بين ذراعي العذراء، وأنه حر بين يديها،
وأنها تقدمه بحنان «سكر الشعير». وخطا خطوة إلى الأمام. وفي داخل الحانوت،
كانت سيدة وحيدة تنتظر البائع، وهي تمرر على شفتيها ماركة جديدة من أحمر
الشفاه. وليس ما هو أبسط من أخذ الطفل يسوع. ومد «سكر الشعير» قدمه ليخطو
خطوة أخرى، لكن خوفاً شد خناقه. وظل ساكناً بلا حراك. يفكر. وهو في خوفه،
أقسم بأنه لن يسرق إلا لكي يأكل، أو حين تقضي بذلك قوانين الجماعة، أي القيام
بعملية سطو يعهد إليه القيام بها «بدرو بالا». ذلك لأنه كان يقدر أن خيانة القوانين (إنها لم
تكتب لكنها كانت منحوتة في ضمير كل ولد من أعضاء الجماعة) أن خيانة قوانين
«فرسان الرمال» كانت أيضاً خطيئة. وهو الآن سيسرق الطفل يسوع، لا لشيء إلا
ليكون معه. وبالنسبة لعينيه كانت هذه خطيئته، لأنه لا يفعل ذلك لكي يأكل، أو
لكي يتبع قوانين «فرسان الرمال». كانت هذه خطيئة، إنه يسرق ليس من أجل أن
يأكل، ولا لكي ينفذ... إن الله عادل، وسيعاقبه، وسوف يسلمه لنار الجحيم
المؤججة. وسوف يحترق لحمه، ويداه اللتان ستأخذان الطفل يسوع، ستحترقان طوال
حياة لن تنتهي أبداً. لقد كان الطفل يسوع ملكاً لصاحب الحانوت. لكن هذا لديه
أطفال يسوع كثيرون، وجميعهم بدناء وموردون، كثيرون بحيث إنه لن يشعر
بالنقص بفقدان واحد، نحيل وضعيف البنية جداً. والآخرون كانوا ملفوفين في أقمشة
ثمينة، دائماً، أقمشة زرقاء سماوية، لكن من النسيج الفاخر الثمين. أما هذا الطفل يسوع،
فكان عارياً كلياً، وكان يحس بالبرد في بطنه. كان ناحلاً هزيلاً، وحتى من الحنان
لم يحصل على أي حنان. وكانت العذراء تقدمه لـ «سكر الشعير». وكان الطفل حزيناً
بين ذراعيها. إن لدى صاحب الحانوت كثيراً من الأطفال يسوع، كثيراً.
فكيف سيشعر بالنقص إذا فقد هذا الطفل يسوع، الحزين والعاري؟ ولعل صاحب
الحانوت لن يعلق عليه أهمية، بل ربما سيصبح حين يعلم بسرقة هذا الطفل يسوع
الذي لم يتوصل أبداً لبيعه، والذي كان حزيناً بين ذراعي العذراء، والذي أمامه كانت
تمر التقيات اللواتي يأتين للشراء بصحون مرتعشات.
- كلا. ليس هذا. لا، إنه قبيح جداً فليغفر لي الله. وهو فوق ذلك،

مفصول عن ذراعي سيدتنا العذراء، انه سوف يسقط على الأرض، وينتهي الامر
لا، ليس هذا

وبقي الطفل يسوع هنا. كانت العذراء تقدمه لخان مارة، ولكن لم يكن احد يريده. لم يكن نساء القفاء يردنه لأجل زاوية مصلاهن في منازلهن، حيث يوجد أصلاً يسوع آخرون، يحملون صنادل قصبية، ومتوجون بتاج ذهبي. ورأى «سكر الشعير» فقط أن الصغير يسوع جائع وظمآن، وبردان ايضاً، وكان يريد أخذه. لكن «سكر الشعير» لم يكن لديه نقود، كما لم تكن لديه العادة لشراء الأشياء. كان يستطيع أخذه. كان يستطيع أن يعطي الطفل يسوع ما يأكله، وما يشربه، وما يدفئه، كل هذا بمساعدة من حب الله. ولكن ان فعل ذلك، أي ان سرق الطفل يسوع، فسوف يعاقبه الله، وسوف تلتهمه نار جهنم كل حياة «سكر الشعير» التي لا تنتهي، ويديه اللتين ستأخذان الطفل يسوع ورأسه الذي يفكر في أخذه. وحينئذ تذكر «سكر الشعير» أن النية وحدها تشكل خطيئة، وأن الشخص يخطيء فقط حين يفكر في فعل الخطيئة. لقد قال الأخ الألماني أن الشخص يكون في كثير من الأحيان أخذاً بارتكاب الخطيئة، وهو لا يعرف ذلك، لأنه يخطيء بالفكر. فخاف «سكر الشعير» من الله، وانطلق راكضاً بسرعة، لكي لا يستمر في ارتكاب الخطيئة. لكنه لم يركض زمناً طويلاً، بل وقف عند زاوية الطريق، ولم يستطع أن يبتعد كثيراً عن التمثال. ونظر إلى الواجهات الزجاجية الأخرى، وعلى هذا النحو لم يكن يرتكب الخطيئة. ودس يديه في جيبيه، (كان يمسك بهما) وحول سير أفكاره. ولكن لأنه كان يمر امامه الرجال العائدون إلى عملهم بعد الغداء، وساورته فكرة. بعد لحظات، سيعود مستخدمو الحانوت الاخرون، وحينئذ سيكون من المستحيل اخذ الطفل يسوع. سيكون ذلك مستحيلاً. وعاد «سكر الشعير» إلى امام معرض الأشياء الدينية.

هنا كان الطفل يسوع، والعذراء التي تقدمه إلى «سكر الشعير». ودقت ساعة جدارية الساعة الواحدة بعد الظهر. لن يلبث أن يحضر المستخدمون الأخرون في الحانوت. وكم سيكونون؟ حتى ولو لم يكن هناك سوى مستخدم واحد، فإن الحانوت صغير، بحيث يصبح مستحيلاً أخذ الطفل يسوع. وبدا له أن العذراء هي التي تهمس له بهذا. والعذراء هي التي تقول له إنه إذا لم يأخذ الطفل - يسوع - فوراً، فهو لن يستطيع أخذه بعد ذلك. كأنها تماماً تقول هذا. وبالتأكيد أنها هي، أجل، هي التي جعلت الآنسة تختفي وراء الستار الموجود في عمق المخزن، الذي تخلت الآن عن حراسته. نعم، إنها العذراء التي تعطي الآن الطفل يسوع لـ «سكر الشعير». وبمقدار ما



يسمح لها ذراعاها، تدعوه بصوتها اللطيف
- خذه واعتن به جيداً. اعتن به جيداً.

تقدم «سكر الشعير» ورأى الجحيم وعقاب الله، ويداه ورأسه التي تحترق طوال حياة لا تنتهي، لكنه هز نفسه كأنه يبقي عنه بعيداً تلك الرؤيا، وتلقى الطفل يسوع الذي كانت تقدمه له العذراء واسنده إلى صدره، ومضى في الشارع.

لم يكن ينظر إلى الطفل يسوع. لكنه شعر الآن أن الطفل يسوع، المسنود إلى صدره، يبتسم، وهو لم يعد جائعاً، ولا ظمآن، ولا يحس بالبرد. إن الطفل يسوع يبتسم كما كان يبتسم الراعي الصغير حين صار في المستودع، وكان يرى أن جو و عرابدي كان يعطيه الحليب بالملعقة، بيديه الهائلتي الكبر، في حين كان «الاستاذ» يشده على دفء صدره.

* * *

# العائلة

وهكذا ابتسم الطفل بسوع

إن « الشارب اللطيف » هو الذي حكى لبيدرو بالا أن في ذلك المنزل يحيى « الاعزباء » يوجد ذهب بمقدار يفقدك العقل. إن صاحب المنزل، كما يبدو، هو جامع تحف، وقد علم « الشارب اللطيف » من أحد اللصوص أنه يوجد في ذلك المنزل غرفة محشوة بالتحف الذهبية والفضية، التي يمكن أن يعود بيعها بثروة كبيرة. وفي فترة قبل الظهر، ذهب بيدرو بالا لمشاهدة المنزل، مع « الشارب اللطيف »، وكان عبارة عن عمارة عصرية واسعة، توجد أمامها حديقة، ومرآب في العمق. وهي مسكن فسيح لأشخاص أغنياء. وبصق « الشارب اللطيف » من بين اسنانه، ورسم ببصقته زهرة على الرصيف، ثم قال:

والقول إنه في هذا القصر يسكن عجوزان فقط!

وعلق بيدرو بالا قائلاً:

- كوخ جميل جداً

وفتحت خادمة الباب الأمامي، وخرجت إلى الحديقة. وفي البهو الذي ظهر للأنظار، شاهدوا لوحات معلقة على الجدران، وعلى الطاولات كانت تماثيل صغيرة، واستغرق بيدرو بالا بالضحك:

- لو أن « الاستاذ » رأى هذا، لأصيب بالجنون... إذ لم يسبق لي أبداً أن رأيت مثل هذا القدر من الكتب واللوحات

- سوف يرسم لوحة وجهية لي، بهذا الكبر. وأشار « الشارب اللطيف » إلى « هذا الكبر » بابعاده يديه احداهما عن الأخرى

ونظر بيدرو بالا مرة أخرى إلى المنزل، واقترب قليلاً من الحديقة وهو يصفر. كانت الخادمة تقطف الازهار، وكان نهداها النقيان يظهران تحت الثوب المكشوف الرقبة والكتفين (الديكولتيه) لأنها كانت منحنية. كان نهدان أبيضين، ينتهيان بحلمتين قرمزيتين. سهد « الشارب اللطيف » إلى جانبه



- يا له من حسن يا بالا

- سيد بيرك

لكن الخادمة كانت قد رأتهما، وأخذت تنظر اليهما وكأنها تسألهما ماذا تريدان. خلع بيدرو بالا كاسكيته وسأل:

- هل يمكنك أن تعطينا قدح ماء ان سمحت. إن الشمس قوية الحرارة

وابتسم، ماسحاً بكاسكيته جبهته التي كان يسيل عليها العرق. كان شديد الاحمرار، تحت الشمس، وشعره الاشقر الطويل يسترسل على أذنيه بتموجات غير منسقة، وقد نظرت اليه الخادمة بعطف، وإلى جانبه، كان « الشارب اللطيف » يدخن عقب سيجارة، ورجله على حجر الحديقة الصغير. ولاحظت الخادمة أولاً « الشارب اللطيف » وردائه

- ابرك قدمك من الحاجز يا هذا!

ثم ابتسمت لبيدرو بالا

- سأحضر الماء فوراً

وعادت مع كوبي ماء، وكانا كوبين لم يسبق ان رأى مثلهما، لشدة جمالهما. وشربا الماء، وشكرها بيدرو بالا

- شكراً جزيلاً

ثم قال بصوت منخفض، جذاب، ماكر

خدت الخادمة، هي أيضاً، بصوت منخفض. ذلك صغير جسور

- في أية ساعة تخرجين من هنا؟

- يا لك من شخص! إن عندي زحمي. وهو سينتظرني في الساعة التاسعة مساءً، عند هذه الزاوية من الشارع

- حسناً هذا المساء، سأكون عند الزاوية الأخرى.

وذهب عبر الشارع، و« الشارب اللطيف » يدخن عقب سيجارته وهو يهوّي وجهه بقبعة مستديرة، التي كان يحملها، وعلق بيدرو بالا

- انني حدثت جداً وهذه مرأة بصحة تماماً

بصق « الشارب اللطيف »، محدداً من بين اسنانه

- أيضاً مع هذا الشعر السوي المستعار المليء بالخصلات المجعدة ..

رفع بيدرو بالا قبضته في وجه « الشارب اللطيف »

- دعني من حسدك، يا خلاصي المرعج

وعبر « الشارب اللطيف » الحديث

– ماذا عن قطع البنت؟

– هذا أولا عمل لأجل « دي الرجل الرخوة »، غداً سيجد وسيلة للدخول إلى هذا المنزل، لقضاء بضعة أيام فيه. وبعدئذ، سوف يعرف أين يوجد أنفس القطع، ويأتي خمسة أو ستة، ويأخذ البضاعة

– وستفقد طريدتك؟

– الخادمة الصغيرة؟ سوف أنالها هذه الليلة بالذات، وحين تدق الساعة التاسعة، سأكون هناك

والتفت ونظر إلى المنزل. كانت الخادمة متكئة على الحاجز الحديدي وحياها بدرو بالا مودعاً، وردت التحية. وبصق « الشارب اللطيف »

– للشيطان أي حظ بنت! لم أر في حياتي مثل هذا الحظ

في اليوم التالي، حوالى الساعة الحادية عشرة والنصف قبل الظهر، ظهر « دي الرجل الرخوة » امام المنزل. وحين دق الجرس، كانت الخادمة ما تزال تفكر في الليلة التي قضتها مع بدرو بالا، في غرفتها على « عارسيا »، لذا فإنها لم تسمع رنين الجرس. ودق العلام الجرس ثانية. فظهر من نافذة غرفة في الطبقة الأولى من المنزل، رأس وخطه الشيب لسيدة راحت تنظر إلى « دي الرجل الرخوة »، وعندها نظرت

– ماذا تريد، يا بني؟

– يا سيدتي، أنني ولد يتيم

أشارت له المرأة بأن ينتظر. وبعد بضع دقائق، كانت عند الباب دون أن تسمع كلام الخادمة التي كانت تعتذر لأنها لم تسمع رنين الجرس

وقالت السيدة

– تستطيع أن تتكلم، يا ولدي

كانت تتأمل أسمال « دي الرجل الرخوة »

– يا سيدتي لم يعد لي أب، ومنذ أيام توفيت أمي الى رحمة الله

وبدت شريطة سوداء على ساعده. وهي ساعده صنعت من شريطه قبعة « القط » الحديدة – بدي اصابه جسد عصب شديد

وعاد « دي الرجل الرخوة » يقول للسيدة

– ليس لي أحد في العالم، أنا معاق، ولا أستطيع العمل كثيراً. ومنذ يومين لم أذق



الطعام، وليس لدي مكان أنام فيه

كان يبدو وكأنه على وشك البكاء. وكانت السيدة تنظر اليه، متأثرة جداً

– هل انت معاق، يا بني؟

أظهر « دي الرجل الرخوة » ساقه العرجاء، وسار امام السيدة مبالغاً في عرجه وحدثت فيه بعطف

– بأي شيء ماتت امك؟

– الحقيقة لست ادري. لقد أصيبت المسكينة بمرض لا أعرف اسمه، حتى سيئة ملاقب وحه ربها بعد خمسة أيام. وخلفتني وحيداً في العالم. لو على الأقل كنت أستطيع العمل. كنت سأتدبر، كنت استطيع أن اتدبر أمري. ولكن مع هذا العرج، لا حيلة لي الا في منزل عائلة. ألا تحتاجون إلى ولد صغير ليقوم بالمشتريات، ويساعد في العمل في المنزل؟ اذا كنتم بحاجة اليّ يا سيدتي

وإذ أن « دا الرجل الرخوة »، اعتبر أنها ما زالت مترددة، أكمل كلامه بوقاحة، وبصوت باك

– لو أني أردت لانضممت إلى هؤلاء الغلمان اللصوص، إلى « فرسان الرمال » لكني انا، لا اكثر من هذا الحر، اني اريد أن اعمل. ولكن هناك أني لا أستطيع أن أحمل عملاً كبيراً. أنا يتيم مسكين، أنا جائع

لكن المرأة لم تكن أبداً مترددة. وكانت تتذكر ولدها الذي مات وهو في سن هذا الغلام. والذي قبل موته كل بهجة عيش مع زوجها، وهذا، على الاقل، كانت لديه مجموعاته من الاعمال الفنية. لكنها، من جهتها لم تكن تملك سوى ذكرى هذا الابن الذي غادرها في وقت مبكر جداً. لذلك كانت تنظر بحنان كبير إلى « دي الرجل الرخوة » المرتدي الاسمال البالية. وتكلمه بصوت ليس لعظمه هو لطف الأيام العادية لكن هناك بعض البهجة في نصف صوتها، وقد أدهش ذلك الخادمة

– ادخل يا ولدي. لا تقلق. سوف أجد لك عملاً

ووضعت يدها دقيقة وارستقراطية، يتلألأ فيها خاتم ذو ماسة على رأس « دي الرجل الرخوة » القذر، وقالت للخادمة

– ماري – جوزيه، اعدي الغرفة القائمة فوق مرآب هذا الولد. وخذيه الى قاعة الحمام وأعطيه مشط زاووب وإثر ذلك، اعدي له الطعام

– هل قبل أن اعد الغداء، يا دونا استير؟

– نعم، فمنذ يومين لم يأكل، هذا المسكين الصغير

لم ينبس «ذو الرجل الرخوة» بكلمة، وكان يقوم فقط بمسح دموعه المتجمعة بظاهر يده.

فانتبهت السيدة لذلك، وأخذت تمسح على وجه الولد.

- يا لك من صبي جيد! سيكافئك الله على هذا!

وتريثت، ثم سألته عن اسمه، فأعطى أول اسم خطر بباله.

- أوغست.

ونظراً لأنه راح يردد الاسم، لذاته لكي لا ينسى أنه يدعى «أوغست» ولم ير بادئ بدء انفعال السيدة التي همست قائلة:

- أوغست، إنه نفس الاسم!

وأضافت بصوت عال، لأن «ذا الرجل الرخوة» كان الآن ينظر إلى وجهها منفعل:

- ابني كان أيضاً يدعى أوغست. لقد مات وهو في نفس سنك. ولكن لا تحزن يا ولدي. اذهب واغتسل، لكي تأكل.

نادت الدونا استير، مستبشرة. ورأت أن الخادمة كانت تشير لـ «ذي الرجل الرخوة» إلى مكان الحمام، وتعطيه مئزر حمام، وتتجه نحو الغرفة القائمة فوق المرآب، لكي ترتبها (كان السائق قد أخذ عطلته، وكانت الغرفة خالية). اقتربت الدونا استير وقالت لـ «ذي الرجل الرخوة»، الذي كان قد توقف عند باب الحمام:

- تستطيع أن تلقي عنك هذه الملابس، وستعطيك ماريا جوزيه ملابس أخرى.

رجع «ذو الرجل الرخوة» ينظر، الآن، إلى السيدة التي كانت تتنهد. وكان عاطفاً، لكنه لم يكن يعرف إذا كان عاطفاً صدقها أو صدق نفسه.

جلست الدونا استير أمام منضدة زينتها، ولبثت دامعة العينين. والذي يراها يعتقد أنها تنظر إلى البعيد، عبر النافذة. لكنها في الحقيقة، لم تكن تنظر إلى شيء، ولم تكن ترى شيئاً. كانت تنظر، نعم، ولكن إلى داخل ذاتها، نحو ذكرى سنوات عديدة، وكانت ترى غلاماً صغيراً في مثل سن «ذي الرجل الرخوة»، وهو، أي ولدها، كان لابساً ثياب بحار ويركض عبر حديقة المنزل، الذي تركوه بعد موته. كان ولداً ملؤه حياة وبهجة، وكان يحب أن يضحك ويقفز، وحين كان يتعب من الركض مع الهر، ومن الصعود إلى أرجوحة الحديقة، ومن لقاء الكرة المطاطية في الدغل، حيث يكون على الكلب (تشيبي ـ لو) أن يسقطها، كان يأتي ويحيط بساعديه عنق الدونا استير،



ويقبلها على وجهها، ويمضي معها ناظراً إلى الكتب المصورة، محاولاً قراءة الحروف ورسمها. ولكي تبقيه معها أطول فترة ممكنة، قررت دونا استير وزوجها أن يعلماه بنفسيهما القراءة في المنزل بالذات. وفي أحد الأيام (هنا اغرورقت عينا الدونا استير بالدموع) صدمت الولد الحمى، وإثر ذلك، انهار النعش لصغر السن، وكانت الأم تنظر إليه مذهولة العينين، ولم تكن تستطيع أن تفهم أن ولدها قد مات. كانت صورته ـ في إطار كبير ـ في غرفتها، ولكن كان يحجبها ستار داكن، لأنها لم ترد رؤية صورة ولدها مجدداً، لكي لا تجدد عذابها. وحتى الملابس التي كان يرتديها قد جمعت في حقيبة صغيرة، ولم يمسها أحد أبداً بعد ذلك. لكن الآن كانت دونا استير تسحب مفاتيح علبة حلاها.

وببطء، ببطء شديد، اتجهت نحو المكان الذي توجد فيه الحقيبة، وقربت كرسياً جلست عليه، وفتحت الحقيبة بيدين مرتجفتين، وأخذت تتأمل السراويل والكنزات، والبزة البحرية، والبيجامات، والقمصان الملونة التي كان ينام بها. وشدت البزة البحرية على صدرها كما لو كانت تعانق ولدها، وانحدرت دموعها.

والآن، جاء غلام صغير فقير ويتيم، يشبه ابنها. وبعد موت ولدها، لم ترد أولاداً آخرين، إذ لم تكن تحب رؤية أولاد الآخرين، ولا أن تلاعبهم لكي لا تزعج الآلام التي تراود ذكراها. ولكن ها هو أحد هؤلاء الأولاد، فقير ويتيم، معاق وحزين، ويقول أنه يسمى «أوغست» مثل ولدها، قد جاء يدق بابها، طالباً الخبز والمأوى وقليلاً من الحنان. لهذا أصبحت لديها الشجاعة لفتح هذه الحقيبة ولأن تخرج منها زي البحار هذا الأزرق، هذه البذلة التي كان يحبها من بين جميع الملابس الأخرى، ـ ذلك لأنه، بالنسبة للدونا استير، قد عاد ابنها اليوم في صورة هذا الولد المعاق واللابس الأسمال، وهو بدون أم ولا أب. لقد عاد ولدها، ودموعها ليست دموع ألم فقط. لقد عاد ابنها، شاحباً هزيلاً، وجائعاً مع ساق معطوبة، ومرتدياً الأسمال البالية. ولكن عن قريب سيصبح من جديد أوغست السعيد والمرح، أوغست الأعوام المنصرمة، ومن جديد سيأتي ليحيط بساعديه عنقها، وليقرأ حروف الأبجدية الكبيرة.

نهضت الدونا استير، وحملت البزة البحرية الزرقاء، وتناول «ذو الرجل الرخوة» أفضل وجبة في حياته، مرتدياً هذه البزة.

فلو أن بذلة البحار قد صنعت لأجله، لما كانت أفضل مما هي عليه الآن. فقد لبست تماماً «ذا الرجل الرخوة»، وحين نظر إلى نفسه في المرآة، تعرف إلى ذاته بصعوبة. لقد استحم. وقد وضعت الخادمة البريانتين على شعره، وعطراً على وجهه

وهذه البدلة السحرية كانت رائعة. وراح «ذو الرجل الرخوة» يتأمل نفسه في المرآة وأمر يده على رأسه، ثم على صدره، ممساً ثيابه، وابتسم وهو يفكر في «القط». وكان يمكن أن يدفع غالياً لكي يراه «القط» في مثل هذه الأناقة. وكان لديه أيضاً حذاء جديد، ولكن الحقيقة هي أن الحذاء كان يثير قرفه بعض الشيء، لأن له عقدة شريط، ويشبه قليلاً حذاء امرأة. وكان «ذو الرجل الرخوة» يجد أن من الغريب أن يلبس مثل هذا الحذاء مع حذاء ساقي. واتجه نحو الحديقة دلك لأنه كان يريد التدخين، فهو لم يكن قد امتنع أبداً عن التدخين بعد الغداء، وأحياناً لم يكن هناك غداء، ولكن دائماً كان هناك عقب سيجارة ما. وهنا، كان يجب الانتباه، انه لا يستطيع أن يدخن على المكشوف. ولو أنهم تركوه في المطبخ، مختلطاً بالخدم كما كانت الحال في المنازل الأخرى، حيث تم دخوله لكي يسرق اثر ذلك، لكان في استطاعته التدخين، وأن يعبر عن نفسه معه «فرسان الرمال» المختصرة. لكن هذه المرة، جرى تحميمه، وألبس ثياباً جديدة، ووضع بريانتين على شعره وعطر على وجهه. واثر ذلك، جرى إطعامه في غرفة الطعام. وأثناء تناول الوجبة، كانت السيدة تحادثه كما لو كان غلاماً صغيراً حسن التربية. والآن، أرسلته ليلعب في الحديقة، حيث كان الهر الأصفر المسمى «ميرلوك»[22] يستدفئ في الشمس. واقترب «ذو الرجل الرخوة» من أحد المقاعد، وأخرج من جيبه علبة سجائر رخيصة الثمن. فهو، لدى تغييره ملابسه، لم ينس علبة الدخان. وأشعل سيجارة وبدأ يتذوق دفقات الدخان في الوقت نفسه مع تفكيره في حياته الجديدة. لقد سبق أن قام بهذا مراراً عديدة أن يدخل إلى منزل عائلة جيدة كولد فقير، يتيم، ومعوق، وعلى هذا الأساس، كان يبقى في ذلك المنزل الوقت الضروري لكي يستكشف المنزل بصورة كاملة، والمواضع التي خبئت فيها الأشياء الثمينة، والمخرج الملائم للهرب. وإثر ذلك، كان «فرسان الرمال» يهاجمون المنزل، خلال إحدى الليالي. أحدهم الأشياء القيمة، وفي المستودع كان «ذو الرجل الرخوة» يضحك وقد استولى عليه فرح هائل، فرح بأنه قد انتقم. لأنهم في هذه المنازل، كانوا يستقبلونه، وإذا كان يعطى خبزاً ومأوى، فذلك كما لو أنهم يقومون بواجب مضجر. كان أصحاب المنازل يتلافون الاقتراب منه، ويتركونه في القذارة، ولم يصدر منهم أبداً أي كلام طيب. وكانوا ينظرون إليه كأنما سألوه

(٢٢) «ميرلوك» أي الخاطف

- ملاحظة من المترجم -



مني سرحين، وإذا لم يكن تأخر على الرحيل. وفي كثير من الأحيان كانت السيدة التي تأثرت لدى رؤيته قصته، التي كان يرويها عند نهاية بصوت يرق الاحشاء، وتسمعه، تظهر علائم واضحة على الندم. وبالنسبة لـ «ذي الرجل الرخوة»، كانت السيدات تستحقه في الندم، لأن «ذا الرجل الرخوة» كان يعتبرهن جميعاً مسؤولات عن وضع جميع الأولاد الفقراء. وكان يبغضهن جميعاً، ويبغض أزواجهن وأولادهن، بغضاء عميقة. وكان ابتهاجه الكبير والوحيد تقريباً، هو إثارته لبؤس العائلات بعد سرقته، لدى تفكيرها بأن هذا الغلام الجائع الذي طعمته كان هو الذي استطلع المنزل وعين لأولاد جائعين آخرين أماكن وجود الأشياء الثمينة.

ولكن هذه المرة، كان الأمر مختلفاً. هذه المرة، لم يتركوه في المطبخ مع أسماله البالية، وهو لم يترك للنوم في الباحة. لقد اعطي ملابس، وغرفة، ووجبة في غرفة الطعام. وقد بقي كضيف، كضيف محبوب. وهو، أثناء تدخينه سيجارته سراً، كان يتساءل في نفسه لماذا يجري ذلك، لماذا يجري هذا، إنه لا يفهم شيئاً مما يحدث. كان وجهه مهموماً. إنه يتذكر يوم السجن، والضربات التي وجهت إليه، والأحلام التي لم تكف عن مراودته، ولحظة حس بالخوف. كان يخاف من أنه في هذا المنزل، سيعامل بطيبة، من ان أصحاب المنزل سيعاملونه بطيبة، أجل. وهو لا يعرف لماذا هو خائف. ونهض، وخرج من مخبئه، وذهب للتدخين تحت نافذة السيدة بالضبط. وهكذا سيرون أنه ولد ضال، وأنه لا يستحق الغرفة والملابس الجديدة، والوجبات في غرفة الطعام. وهكذا، سوف يرسلونه إلى المطبخ، وسوف يستطيع أن يقوم بنجاح بعمله الانتقامي، وأن يغذي البغضاء في قلبه، ذلك لأنه إذا انطفأت هذه البغضاء، فسوف يموت، ولن يبقى لديه أي سبب للحياة. ومرت أمام عينيه رؤيا الرجل الذي يرى جنوداً يتهافتون بالضرب عليه (أي على «ذي الرجل الرخوة»)، فانفجر (أي الرجل) بضحكة فظة. وهذا ما يجب أن يمنع «ذا الرجل الرخوة» من أن يرى وجهه بدون أسير المفعم بالطيبة. وبادرة الأب جورجه بدت وكأنها خاتمة له، وتضامن العصابات الإضرابية لعمال المساء، حتى «دادام» سوف يبقى وحيداً وبغضاؤه سوف تشملهم جميعاً، بيضاً وزنوجاً، رجالاً ونساءً، أغنياء وفقراء. هذا ما يخشى أن يكون سامياً طيبين نحوه.

وفي فترة بعد الظهر، وصل صاحب المنزل راؤول من مكتبه. كان محامياً شهيراً حقق ثروة من مهنته، وهو يقوم بالتدريس في كلية الحقوق، ولكنه فوق كل شيء، كان هاوي مجموعات. كان لديه رواق ممتاز من اللوحات، والعملات القديمة، والأعمال الفنية الثمينة. وفي هذه اللحظة، كان «ذو الرجل الرخوة» يتفرج على الصور

في مكتب الأعمال، انفتحت في نفسه على مثل الآلة التي يخدعه بمفرده ولم يره أحد قبل صعود الدرج، ولكن بعد ذلك فوراً، جاءت الخادمة تدعو «ذا الرجل الرخوة» وقادته إلى غرفة الدونا استير، وكان رأؤول في القميص، بدون سترة، يدخن سيجارة، وينظر إليه برقة بابتسامة مرحة. ذلك لأن ملامح «ذي الرجل الرخوة» كانت تعبر عن الرعب لدى دخوله الغرفة.

— ادخل

كان «ذو الرجل الرخوة» يترنح، ولا يعرف أين يضع يديه، وقالت له الدونا استير بلطف:

— اجلس، يا بني. ولا تخف

جلس «ذو الرجل الرخوة» على حافة كرسي، وانتظر. وراح المحامي يتفحصه، ويدرس وجهه، ولكن كان ذلك بعطف. وكان «ذو الرجل الرخوة» يعد أجوبته على الأسئلة التي لا بد منها. وحكى مرة ثانية القصة التي اختلقها في الصباح، ولكن حين بدأ يبكي بدموع غزيرة، دعاه المحامي للتوقف، ونهض متجهاً نحو النافذة. وفهم «ذو الرجل الرخوة» أن الرجل قد تأثر، ونتيجة لذلك (أي «ذو الرجل الرخوة») هدأ حملته بعض الشيء وابتسم في داخله. ولكن لأن اقترب المحامي من الدونا استير، وقبلها على الجبين، ثم في شفتيها، وغض «ذو الرجل الرخوة» بصره. وسار رأؤول إليه، ووضع يده على كتفه وقال:

— لا شك بعد الآن، الآن لن تعرف الجوع بعد أبداً. اذهب [illegible] اذهب والعب، اذهب وتفرج على الكتب. هذه الليلة سنذهب إلى السينما. هل تحب السينما؟

— نعم، يا سيدي

وصرفه المحامي مشيراً بيده، وخرج «ذو الرجل الرخوة». لكنه رأى قبل خروجه رأؤول يقترب من الدونا استير ويقول لها:

— [illegible] قديسة. سوف نجعل منه رجلاً. كانت ساعة العصر، وأضاءت الأنوار. وفكر «ذو الرجل الرخوة» في أن «قوس البرميل» في هذه الساعة يرتادون المدينة بحثاً عن طعام.

وبدأ خطأه في السينما، حين كان الشاب سهل عرضة على الرجل العظيم لم يستطع «ذو الرجل الرخوة» أن يصرخ كما كان يفعل في المرات التي يتمكن فيها من الدخول إلى الرواق الأعلى للسينما «[illegible]» أو «إلى سيتي» «إساما جيب» أو [illegible] في سينما «غوراني» [illegible] ومريحة. فكان عليه أن يتابع الفيلم في صمت، وفي لحظة معينة لم يتمكن فيها



من كبت عينه فأطبق صدره، نظر إليه رأؤول. صحيح أن المحامي كان يبتسم، لكن مؤكد تماماً أنه [illegible] حركة لكي لا يعود «ذو الرجل الرخوة» إلى الصفير.

ولم يلبث [illegible] شرب [illegible] في [illegible] تجاه دار السينما. وفي حين كان يحتسي [illegible] المثلج، فكر «ذو الرجل الرخوة» في أنه كاد يرتكب حماقة لا علاج لها حين سأله المحامي ماذا يريد أن يشرب، وكاد يطلب مرة [illegible]. لكنه تمالك نفسه في الوقت المناسب، وطلب شراب الشعير.

وفي السيارة صعد المحامي إلى المقعد الأمامي للقيادة للسيارة، وصعد «ذو الرجل الرخوة» إلى المقعد الخلفي، مع الدونا استير التي كانت تدردش معه. وكانت محادثة عسيرة على «ذي الرجل الرخوة» الذي كان عليه أن يضبط كلماته وتعابيره التي كانت بذيئة جداً، ومليئة بكلمات فظة. وكانت الدونا استير تسأله عن أمه، وكان «ذو الرجل الرخوة» يجيب كما يستطيع ويبذل جهداً كبيراً [illegible] لكي لا يفصح مرة [illegible]. [illegible] وقادت الدونا استير «ذا الرجل الرخوة» إلى غرفة [illegible] فوق [illegible].

— لا تخاف النوم هنا بمفردك؟

— كلا، يا سيدتي

— ذلك [illegible] سأمكث فوق في الغرفة التي كانت لولدي أوغست

— لا داعي لهذا. أيتها الدونا استير. فهذه الغرفة [illegible] جداً

وانحنت عليه وقبلته

— ليلة سعيدة، يا صغيري

خرجت، وانقفل الباب وظل «ذو الرجل الرخوة» ساكناً بلا حراك، دون أية حركة، حتى دون أن يجلس على الحافة [illegible] واضعاً يده على وجهه حيث قبلته الدونا استير. لم يكن يفكر في شيء، ولا يرى شيئاً، لا شيء، لا في القبلة الحلوة، هذه القبلة التي لم يتلق مثلها من قبل. [illegible] لا شيء. لا بصمة [illegible] على وجهه، حتى كأن الأرض توقفت عن الدوران في لحظة [illegible] هذه، وأن كل شيء قد تغير ولم يعد هناك [illegible] سوى الإحساس اللطيف بهذه البصمة الأمومية على وجه «ذي الرجل الرخوة».

وإثر ذلك، كان [illegible] أحلام [illegible]، ورجل ذو [illegible] الذي كان [illegible] على «ذي الرجل الرخوة» الذي كان يركض

برجله المعاقة حول الغرفة، ولكن فجأة برزت الدونا إستير، والرجل ذو الصدرة،
وجنود الدين يمرون وسط عصابات تعذيب ليس لها مثيل، ذلك لأن «ذا الرجل
الرخوة» كان يرتدي الآن برة بحار، وكان يمسك بيده سوطاً مثل الشاب في السينما
ومرت ثمانية أيام. وقد جاء بيدرو بالا مراراً عديدة إلى أمام المنزل ليسقط أنباء
«ذي الرجل الرخوة» الذي تأخر في العودة إلى المستودع. لقد مر أكثر من الوقت
اللازم حتى عرف «ذو الرجل الرخوة» أماكن الأشياء الثمينة الممكن نقلها، والمخارج
التي من شأنها تسهيل الفرار. ولكن بدلاً من أن يرى «ذا الرجل الرخوة» كان بيدرو
بالا يرى الخادمة التي كانت تظن أنه جاء من أجلها. وفي أحد الأيام، وكان يحدث
هذه الخادمة، أدار بيدرو بالا الحديث بكثير من البراعة، نحو «ذي الرجل الرخوة»

- السيدة التي هنا لها غلام، أليس كذلك؟
- هذا ولد صغير سنه وهو لطيف جداً

ابتسم بيدرو بالا، لأنه كان يعرف أن «ذا الرجل الرخوة» حين يريد، كان يظهر
كأفضل غلام صغير في العالم. وتابعت الخادمة تقول

- إنه أصغر منك قليلاً، لكنه غلام صغير. إنه ليس داعراً ولا فاسقاً مثلك،
أنت الذي بدأت بمجامعة النساء... وكانت تضحك من بيدرو بالا قائلة
- أنت الذي فضضت بكارتي
- لا تقولي أشياء حسنة ثم أن هذه أكذوبة
- أنا [illegible] عن ذلك

كانت تحب أن يكون هذا صحيحاً، وهي، وإن لم تصدق ذلك، ولكن كان يروق
لها أن يقوله لها. ولم تكن تحس فقط أنها عشيقة لغلام، بل أنه أيضاً بعض الشيء

- لعل سيده لا تعجبك طريقة تمنعه
- هذه جميلة، عند رؤية الشارع ولكن قولي لي قليلاً لا تدرين أمرك مع
الغلام الذي هنا؟
- لا تعرف حتى ما هو هذا الشيء. إنه صغير، وولد مدلل. أنت
تحاول أن ترى جيداً أنه ليس من النوع الذي يروق لي

وفي مرة ثانية أفلح بيدرو بالا في رؤية «ذي الرجل الرخوة» وكان هذا الأخير
يتمدد في الحديقة (وفقط يمر إلى جانبه). وكان «ذو الرجل الرخوة» يتفرج على
كتب مصورة، وذهل بيدرو بالا حين شاهده لابساً سروالاً من الكشمير الرمادي،
وسترة حريرية وحتى شعره كان ممرحاً وظل بيدرو بالا فترة فاغر الفم، دون أن



يستطيع الصفير «لذي الرجل الرخوة». وأخيراً تمالك نفسه، وصفر. وسرعان ما
نهض «ذو الرجل الرخوة» على قدميه، ورأى بيدرو بالا في الجانب الآخر من الشارع،
وأشار إليه بأن ينتظره واجتاز البوابة. بعد أن تأكد من أن أحداً لا يحوم في تلك
الأماكن

واتجه بيدرو بالا نحو زاوية الشارع وتبعه «ذو الرجل الرخوة». وحين أدركه،
ازدادت دهشة بيدرو بالا أكثر أيضاً

- لعنة الله عليك! أنت تفوح منك رائحة طيبة! يا «ذا الرجل الرخوة». أبدى
«ذو الرجل الرخوة» هيئة منزعجة، لكن بيدرو بالا تابع قائلاً
إنك أكثر أناقة بعشر مرات من «القط». عجباً! إذا جئت هكذا إلى الكوخ -
هكذا كان بيدرو يسمي المستودع - فسوف ينقض الآخرون عليك. إنك تبدو مثل
دمية حقيقية
- لا تلح علي في الطلب. إنني أتفحص الأشياء... سيكون الأمر أطول مدة،
سوف أهرب، وتستطيع أنت أن تأتي مع الآخرين
- هذه المرة، لست مستعجلاً
- ذلك لأن البضاعة مقفل عليها بصورة محكمة، هكذا قال «ذو الرجل الرخوة»
كاذباً
- جهد لتدبير الأمور
- [illegible] ذلك سنذكر
- لقد أساء «الدخيل» التصرف. وقد كاد أن يعترف للشرطة. ولولا دون آبيها
الذي أعطاه شيئاً يشربه، ويقوي عزيمته مجدداً... ولما عدت رأيته. إنه أكثر هزالاً من
سمك حديدي

وعلى هذا الشكل استأذن للذهاب، موصياً مرة أخرى «ذا الرجل الرخوة» بأن
يستعجل

عاد «ذو الرجل الرخوة» ليتمدد في الحديقة. لكنه، الآن لم يعد يرى صور
الكتب بل ما صار يراه، هو «الدخيل». كان «الدخيل» هو من أكثر الذين
يضطهدهم «ذو الرجل الرخوة» في الجماعة. وكان ابن أشخاص عرب، ويتكلم بلهجة
غريبة وطريفة. وكان هذا يتيح المجال لسيل من السخرية من جانب «ذي الرجل
الرخوة». لم يكن «الدخيل» قوي البنية، ولم ينجح أبداً في تكوين مكانة بين «فرسان
الرمل». رغم أن بيدرو بالا و«الأستاذ» قد سعوا لإعطائه الوسائل لذلك. وكان

يرون فيهم أن يكون بينهم أجنبي أو شبه أجنبي. لكن «الدخيل» كان يكتفي بعمليات نشل واختلاس صغيرة، متجنباً عمليات السطو المجازفة، وكان يحلم بحقيبة بضائع رخيصة يقوم ببيعها لخدم منازل الأغنياء.

كان «ذو الرجل الرخوة» يسيء معاملته بلا شفقة، ويهزأ به، وبلغته الغامضة، ويفتقد فيه الشجاعة، لكن الآن و«ذو الرجل الرخوة» مضطجع في حديقة، على العشب الناعم، مرتدياً بدلة جديدة، ومسرح الشعر ومعطراً، وكتاب صور قربه، كان يفكر في «الدخيل» شبه الميت من الجوع، في حين أنه هو، أي «ذو الرجل الرخوة»، يأكل جيداً ويلبس ملابس جديدة، وليس فقط أن «الدخيل» قد لامس الموت، ولكن خلال هذه الأيام الثمانية، ما زال «فرسان الرمال» سيئي الملابس، وسيئي التغذية، ينامون تحت المطر في المستودع الذي لا سقف له تقريباً، أو تحت الجسور. وخلال هذا الوقت، كان «ذو الرجل الرخوة» ينام في سرير جيد، ويأكل مآكل جيدة وبدأ يصاب بسمنة، وتدعوه ولدها. وأحس أنه خائن لجماعته، كان مشابهاً لعامل المياه الذي كان يتحدث عنه جان دانيال وهو يبصق على الأرض، دائساً عليها بقدمه علامة على الازدراء. إن عامل المياه هذا، الذي انتقل أثناء الإضراب متنكراً إلى الجانب الآخر، إلى جانب الأغنياء، قد حطم الإضراب، وذهب يجمع الرجال من الخارج للعمل على أرصفة الميناء. ولم يعد أبداً أحد من عمال الميناء يصافحه. ولم يعد أحد منهم يعامله كصديق. ولو كان «ذو الرجل الرخوة» يضع استثناء في بعضه لتحسس البشري، فقد فقط لصالح هؤلاء الأولاد الذين يشكلون «فرسان الرمال». كان هؤلاء رفاقه وصحبه، وكانوا عائلته، وصحبيا جميع الآخرين كما كان يرى «ذو الرجل الرخوة»، وهو يحس الآن بأنه أخذ يتخلى عنهم، وأنه أحس في الانتقال إلى الجانب الآخر عند هذا التفكير. قام بدفعة، وحس كلا، إنه لن يخونهم. قبل كل شيء، كان هناك قانون الجماعة، قانون فرسان الرمال. والذين يخونون هذا القانون يطردون من الجماعة، ولا يصير لهم أي شيء طيب في هذا العالم. وما من أحد أبداً خان «فرسان الرمال»، ما عدا الذي كاد «ذو الرجل الرخوة» أن يخون بها جماعة لكي يتحول إلى ولد مدلل. ولكي يصبح واحداً من الأولاد الذين يطلقهم أفراد الجماعة من جيوبهم ويكاتهم. كلا، كلا. إنه لن يخون «فرسان الرمال». لقد كفته ثلاثة أيام لمعرفة أماكن وجود الأشياء الثمينة في المنزل. لكن الطعام وحرية الملابس، والمعرفة وأكثر من المعرفة والحرية والطعام وحنان الدونا إستير جعلته يمضي حتى الآن ثمانية أيام. لقد شعر أن



هذا الحنان، كما اشترى عامل الميناء بالمال. لكنه حين وصل إلى هذه النقطة، تساءل إذا كان سيخون الدونا إستير. لقد وضعت ثقتها فيه هي أيضاً، مثل «فرسان الرمال»، تماماً بقانون في منزلها. لم يكن تعاقب إلا حين يكون هناك خطأ، وكانت ترد على الخير بالخير. إن «ذا الرجل الرخوة» سيخون هذا القانون سيرد على الخير بالشر. وتذكر مرات أخرى حيث، حين كان يقرر من منزل لتسليمه لعملية سطو. كان فرح عظيم يستولي عليه. وهذه المرة، لم يكن أي فرح يجيء في دخيلته. إن بعضه يرى الشيء يتلاشى. هذا صحيح. لكنه كان يستثني أصحاب هذا المنزل لأن الدونا إستير كانت تدعوه «ولدي»، وتقبله على خده. كان «ذو الرجل الرخوة» يناضل ضد نفسه. إنه يحب لو استمرت حياته هنا، على هذا النحو. ولكن ماذا سيفيد هذا «فرسان الرمال»؟ إنه واحد منهم. ولن يتمكن أبداً من أن يكف عن كونه واحداً منهم، لأنه في أحد الأيام اعتقله الجنود، وانهالوا عليه بالضرب، في حين كان رجل ذو صدرة سوداء يضحك ضحكاً فظاً. وصمم «ذو الرجل الرخوة» وتحدد قراره. لكنه راح يتفحص بحنان بو هذه غرفة دونا إستير. وهي التي كانت برفقته لاحظت أنه يبكي

- أأنت تبكي، يا صغيري؟

والتفت من النافذة، وجاءت إليه، وحينئذ فقط لاحظ «ذو الرجل الرخوة» أنه كان يبكي. وجفف دموعه، وعض يده. وكانت دونا إستير قد صارت قربه

- هل أنت تبكي يا أوغست؟ هل حدث شيء ما؟

- كلا، يا سيدتي. إني لا أبكي.

- لا تكذب يا ولدي. إني أرى ذلك جيداً. ماذا حدث؟ هل أنت تفكر في ميت؟

وجذبته نحوها. وجلست على مقعده، وأسندت رأس «ذي الرجل الرخوة» إلى صدرها بالأمومة.

لا تبك، نعم، أنت الآن لديك ماما صغيرة أخرى، لا تريد أن ترى حزنك، وأن تفعل كل شيء لكي تحول نحو تلك الآلام التي تقدمها (... وهو ستفعل لها كل شيء لكي تحول نحو الوسط الذي تقدمه، هذا ما سمعه «ذو الرجل الرخوة» في دخيلته)

وقبلته دونا إستير على خده الذي كانت تسيل عليه الدموع

- لا تبك، ولا تصب بحزن وغم مثل

حينئذ انفجرت شفتا «ذي الرجل الرخوة»، واستغرق في البكاء، وبكى زمناً طويلاً مستنداً إلى صدر أمه. وفي حين كان يعانقها، ويلثم تقبيلاتها، كان يبكي

شدة لأنه سيتخلى عنه، وأكثر من ذلك أيضاً، لأنه سوف يسرقها. وربما لن تعرف أبداً أن «ذو الرجل الرخوة» لديه احساس بأنه سوف يسرق نفسه، كما أنها تجهل أن بكاءه وتحسه كانا دعوة للمغفرة.

* * *

بعد فترة لا حدث سريعة لأن راؤول سيطير للقيام برحلة إلى ريو دي جنيرو لأجل أعمال فصلية مهمة. وفكر «ذو الرجل الرخوة» بأنه لا توجد فرصة أفضل لأجل عملية السطو.

وفي فترة بعد الظهر التي ذهب فيها، راح يتأمل المنزل كله، وداعب بيرلوت القط، وتحدث مع الخادمة. ونظر في كتاب الصور. وإثر ذلك ذهب إلى غرفة دونا استير وقال لها إنه سيذهب للنزهة حتى شارع كاميو ريدي. وهي، حينئذ سرت لأنه بأن راؤول سيحضر له دراجة من الريو. وأنه عندئذ سوف يركبها بدلاً من السير على قدمين عبر شارع كاميو ريدي. خفض «ذو الرجل الرخوة» عينيه، لكنه قبل أن يخرج مشى نحو دونا استير وقبلها. كانت هذه أول مرة يقبلها فيها. وسببت هذه فرحاً كبيراً لها. وأضاف بصوت منخفض جداً، منتزعاً الكلمات من أعماق ذاته:

— أنت طيبة جداً. أبداً لن أنسى.

خرج ولم يعد. وفي منتصف الليلة نام في زاويته بالمستودع. وذهب بيدرو بالا مع فريق إلى المنزل. وأحاط الآخرون بـ «ذي الرجل الرخوة» معجبين بملابسه، وبشعره المسرح جيداً، وبالعطر الذي كان يفوح من جسمه. لكن «ذا الرجل الرخوة» قفز عن حماقة ولد، وذهب يتقدم متذمراً إلى زاويته. وبقي هناك يقرض أظافره. دون أن ينام وكان يحس بالقلق والغصة، إلى أن عاد بيدرو بالا، والآخرون حاملين نتاج عملية السطو. وأعلن لـ «ذي الرجل الرخوة» أن عملية السطو هذه كانت أسهل عملية على الاطلاق، وأنه لا أحد عرف بها في المنزل، وأن الجميع واصلوا النوم. ولعلهم حتى اليوم التالي كانوا لم يكتشفوا السرقة بعد. وكان يظهر الأشياء الذهبية والفضية.

— غداً، سيدفع لنا غونزاليس مالاً كثيراً لقاء هذه الأشياء الثمينة!

لكن «ذو الرجل الرخوة» يغمض عينيه لكي لا يرى. وبعد أن ذهب الجميع للنوم اقترب من «القط»:

— هل تريد أن تعقد صفقة معي؟

— ما هي هذه الصفقة؟

— أعطيك هذه الملابس، وتعطيني ملابسك.



نظر إليه «القط» مفعماً بالذهول. لا شك في أن ثيابه أفضل من ثياب جميع أفراد جماعته، لكنها كانت ملابس عتيقة، وهي لا تساوي أبداً قيمة البدلة الجيدة في قماشها، والكرمبر التي يرتديها «ذو الرجل الرخوة». وإنه مريض، هكذا فكر «القط» في حين كان يجيب:

— تسألني إذا كنت موافقاً؟ وهل هذا موضع تساؤل؟

وتبدلا الملابس. وعاد «ذو الرجل الرخوة» إلى زاويته، وحدث أن نام.

في الشارع كان يتقدم الدكتور[23] راؤول، مع حارسين كان هما الجنديان نفسهما اللذان شهدا «ذا الرجل الرخوة» مضروباً في السجن. كان «ذو الرجل الرخوة» يركض، لكن الدكتور راؤول كان يدل عليه بالأصبع، فأخذه الحارسان إلى نفس غرفة السجن. وكان المشهد هو المشهد الدائم: الجنود الذين كانوا يلهون بجعله يركض بساقه العرجاء، ويهالون عليه بالضرب. والرجل ذو الصدرة الذي كان يضحك. ولكن هذه المرة، في القاعة، كانت توجد أيضاً دونا استير التي كانت تنظر إليه بعينيها الحزينتين، وتقول إنه لم يعد ابنها، وإنه لص. وكانت عينا دونا استير تجعلانه يتألم أكثر مما كانت تؤلمه ضربات الجنود، وأكثر من آلام ضحكة الرجل ذي الصدرة.

وسقط مبللاً بالعرق. وفر من ليل المستودع، وذهب نحو الفجر وهو يهيم عبر الرمال.

وفي اليوم التالي، في الليل، جاء بيدرو بالا ليعطيه النقود التي كانت حصته من عملية. لكن «ذا الرجل الرخوة» رفضها دون أن يعطي تفسيراً. وإثر ذلك، جاء «ذو الكوع الناشف» مع صحيفة تتضمن أخبار لامبياو. وقرأ «الأستاذ» المقال لـ «ذي الكوع الناشف». وراح يتصفح الجريدة. وحينئذ نادى:

— يا «ذا الرجل الرخوة»! يا «ذا الرجل الرخوة»!

هرع «ذو الرجل الرخوة» راكضاً. وتراكض نحوه آخرون، وشكلوا حلقة وأعلن «الأستاذ» قائلاً:

— هذا يخصك، يا «ذا الرجل الرخوة».

وقرأ الإعلان الثاني في الصحيفة.

(٢٣) الدكتور، بهذا اللقب في البرازيل، يشار ليس فقط إلى الأطباء، بل يمنح هذا اللقب أيضاً للقضاة والمحامين إلخ. وبصورة عامة لكل رجل يراد تكريمه.

— ملاحظة من المترجم —

«بالأمس خطف من الرقم    من شارع    في حي «عراسا» ولد لأصحاب المنزل، يدعى أوغست. ولا بد أنه ضاع عبر المدينة التي يكاد لا يعرفها. إن في إحدى قدميه عرجاً، وهو في الثالثة عشرة من عمره، وهو خجول جداً ويرتدي بدلة من الكرمبر الرمادي. والشرطة تبحث عنه لإعادته إلى ذويه المتألمين، ولكن حتى الآن لم تعثر له على أثر. وسوف تعطي العائلة مكافأة جيدة لمن سيعطي معلومات عن الصغير أوغست، ويعيده إلى منزله».

ظل «ذو الرجل الرخوة» صامتاً. وكان يعض على شفتيه وقال «الاستاذ»:

- إنهم لم يكتشفوا السرقة بعد.

أجاب «ذو الرجل الرخوة» إيجاباً بإيماءة برأسه. وحين سيكتشفون السرقة لن يعودوا يبحثون عنه كولد ضائع. وكثر بارائد و تكشيرة هزلية وصاح:

- إن الشرطة تبحث عنك، يا «ذو الرجل الرخوة». إن ماماك تبحث عنك لكي ترضعك.

لكنه لم يعد يقول أي شيء. لأن «ذا الرجل الرخوة» قد انقض عليه. شاهراً خنجره. وكان يمكن التأكيد أن يبقر بطن بريجي الصغير لو لم يسحبه جواو غراندي و«دودو» تكوع الناشف من يديه. وقد خاف بارائد كثيراً. وعاد «ذو الرجل الرخوة» إلى زاويته موجهاً نظرة غضب إلى الجميع. وأدركه بيدرو بالا، ووضع يده على كتفه.

- إنهم يمكن أن لا يكتشفوا السرقة أبداً، يا «ذو الرجل الرخوة». وأن لا يعرفوا أي شيء عنك... ولا يجب أن تخرب.

- حين سيعود رائوون سوف يعرفون.

واستغرق في تفكير، وبعد خجلا «فرسان الرمال» مندهشين. إن بيدرو بالا و«الاستاذ» فقط فهموا وحدهم، وهذا الأخير هز بيديه علامة على العجز. وبدأ بيدرو بالا حديثاً طويلاً حول موضوع مختلف جداً. وهناك، في الخارج كانت الريح تجري على الرمال وكان هزيمها مثل شكوى أنين.



# صباح مثل لوحة

في حين كان بيدرو بالا يستنشق نسيم الحقل كان يفكر في أنه لا شيء في العالم أفضل من الذهاب هكذا، كيفما اتفق، عبر شوارع باهيا. إن بضعة شوارع فقط هي معبدة بالزفت. لكن الأكثرية الساحقة من شوارع المدينة مرصوفة بحجارة سوداء. كان صباحاً ساطعاً، يتمشى على شارع من بوابة مساكن المدينة، ولم يكن أحد يستطيع أن يعلم بذلك. كانت هذه هي حافة رومانسية تنظر نحو روح غني. وإذا كان موسماً شاملة عبر شرفة ضيقة جداً، مزينة بأزهار قديمة. وكانت نسوة تحجب سوداء تتحدث إلى الكنائس. وكانت الشمس تضرب على حجارة الطرق أو على سقف حادة، وهي تضيء سطوح المنازل. وعلى شرفة ضيقة سفلية كبيرة كانت تنمو أزهار في صناديق. هذه الأزهار كانت ذات ألوان متعددة ومختلفة، والشمس توزع حصصها اليومية من الضوء. وكانت أجراس كنيسة حمل في السحل تدعو نساء محجبات اللواتي كن يسرن بخطى مستعجلة. وفي وسط الطبيعة، كان بريجي وجلاسي يتحدثان على الزهور. لكن بريجي قد التقطها. وحيا بيدرو بالا، عند مروره بريجي:

- كيف حالك، أيها «الزهرة - البيضاء»؟

وأنت يا بالا؟ كيف حال هذا الادعاء الصغير؟

لكن جلاسي كان قد التقى الزهور البرد وكان الزهري مهتماً كثيراً بالمعه. وتابع بيدرو بالا طريقه. كان «الاستاذ» يرافقه. وكان وجهه النحيف ملقى إلى الأمام، وكأنه من مراهق له قهر لطبعه. لكنه كان يتسم في عمق الوجه. وابتعد بيدرو بالا نحوه، ورافقه بشماته. وكانت المدينة مبتهجة، مغمورة بالشمس. إن سهرات باهيا شبه أيام بعيد. هكذا كان يفكر بيدرو بالا، الذي يتسلم هو أيضاً للبهجة. كان يصفر بقوة، ويربت بمرح على كتف «الاستاذ». وراح كلاهما يضحكان، وبعد قليل، تحول الضحك إلى ضحك شديد فيه. بيد أنهما لم يكن في جيوبهما سوى بضعة فلوس قليلة. كانا يرتديان الأسمال البالية، ولا يعرفان ماذا سيأكلان. لكن روحيهما

كانتا مليئتين بجمال النهار وبحرية الانطلاق في شوارع المدينة كانا يسيران ضاحكين بلا سبب، وقد وضع بيدرو بالا ذراعه على كتف «الاستاذ»، ومن حيث كانا، كان باستطاعتهما رؤية السوق ومرفأ «السفن الشراعية»، بل وحتى المستودع القديم حيث ينامان. أشار بيدرو بالا إلى جدار الطلعة وقال لـ «الاستاذ»:

ـ عليك أن تصنع لوحة من هذا... إنه جميل جداً.

اقفلت هيئة «الاستاذ»:

ـ أعرف جيداً أن هذا لن يحصل أبداً...

ـ ماذا؟

ـ هناك مرات احفر فيها دماغي...

وراح «الاستاذ» يتأمل المياه هناك، في أسفل، والسفن الشراعية التي تشبه الدمى، والرجال الصغار جداً الذين يحملون أكياساً على ظهورهم.

وتابع كلامه بصوت حاد، وكأن شخصاً ما قد ضربه، قال:

ـ أنوي أن أصور يوماً كثيراً من الأشياء هنا.

ـ لديك وسائل ولو أنك دخلت المدرسة.

ـ ولكن هذا لا يمكن أبداً أن يكون شارعاً بهيجاً، لا...

لم يكن يبدو أن «الاستاذ» قد سمع مداخلة بيدرو بالا والآن، كانت عيناه تضيعان في البعيد، وبدا أكثر ضعفاً أيضاً.

ـ لماذ؟

كان بيدرو بالا مذهولاً.

ـ أفلا ترى أن كل شيء جميل؟ كل شيء بهيج.

وأشار بيدرو بالا إلى سطوح المدينة السفلى:

ـ هناك توجد ألوان أكثر مما في قوس قزح...

ـ هذا صحيح... ولكن اذا القيت نظرة على الناس... بدا لك كل شيء حزيناً ولست اتكلم على الاغنياء. أنت تعرف هذا جيداً. إنني اتحدث عن الآخرين، عن عمال المواني، وعن رجال السوق، أنت تعرف... جميعاً بهيئة الجائعين، لا أعرف حتى أن افسر فكرتي هذا شيء غريب احس به..

لم يعد بيدرو بالا مذهولاً.

ـ لأجل هذا قاد جان دادام مرات عديدة اضرابات على ارصفة الميناء. وهو يقول أن الاشياء سوف تتغير في يوم من الايام. وسينقلب كل شيء.



ـ لقد سبق لي أن قرأت هذا في كتاب... كتاب لجان دادام. ولو كنت قد تعلمت في المدرسة، لكان ذلك أفضل. كما تقول. في أحد الأيام، سأكون قد رسمت كثيراً من اللوحات الجميلة. نهار جميل، وناس سعداء يسيرون، ويضحكون، ويتحابون، مثل ناس نازاريه، أليس كذلك؟ حسناً، ولكن أين هي المدرسة؟ أنا أريد تماماً القيام برسم مفعم بالفرح، يكون النهار فيه جميلاً، ويكون كل شيء في هذه اللوحة جميلاً. أما أن يكون الناس حزناء، فهذا لا أريده، كلا. إنني أود أن اصنع شيئاً بهيجاً

ـ من يدري أنه من الأفضل أن يصنع شيء كما تصنع أنت فهذا يمكن أن يكون جميلاً، وأكثر تأثيراً.

ـ ماذا تعرف عن ذلك؟ وماذا أعرف أنا؟ نحن لم نذهب ابداً إلى المدرسة إني أرغب في رسم صورة الناس، وصورة الشوارع، لكنني لم أذهب أبداً إلى المدرسة. وهناك أشياء كثيرة لا أعرفها...

هدأ «الاستاذ» قليلاً، ونظر إلى بيدرو بالا الذي كان يصغي اليه، ثم تابع كلامه قائلاً.

ـ هل سبق لك أن القيت نظرة على «مدرسة الفنون الجميلة»؟ انها مدهشة جداً، يا عصفي العتيق. لقد تسللت اليها يوماً، ودخلت إلى احدى قاعاتها واختبأت. وكانوا جميعاً هناك، مرتدين بلورات بيضاء، ولم يشاهدوني. وكانوا يرسمون امرأة عارية، آه لو كنت استطيعُ يوماً...

ظل بيدرو بالا ساهماً ونظر إلى «الاستاذ» وكأنه، أي بيدرو، كان يفكر ثم قال، بلهجة جدية:

ـ هل تعرف كم يكلف ذلك؟

ـ ماذا؟

ـ تكاليف المدرسة؟ والاستاذ؟

ـ ما هي هذه القصة؟

ـ سوف نشترك في الدفع، سندفع لأجل دخولك المدرسة...

راح «الاستاذ» يضحك.

ـ إنك لا تدرك المسألة. هناك تعقيدات كثيرة... لا يمكن، كلا. توقف عن قول حماقات.

ـ يقول جان دادام أننا سوف نستطيع يوماً الذهاب إلى المدرسة...

وعادا يسيران. وبدا أن «الاستاذ» لم يعد يحس ببهجة هذا النهار ـ كما لو أن هذا النهار ابتعد، بعيداً جداً عنه. ولطمه بيدرو بالا:

ـ في يوم من الأيام، أيها الأخ العجوز، سوف تضع كومة من الرسوم في قاعة شارع التشيلي. بدون مدرسة، وبدون أي شيء. لا يوجد واحد من طلاب مدرسة الفنون يرسم الوجوه مثلك... أنت، من هذه الناحية، متفوق...

استغرق «الاستاذ» في الضحك. وضحك بيدرو هو أيضاً:

ـ وسوف ترسمني، أليس كذلك؟ وستضع اسمي في أسفل الصورة، هل ستضعه؟ الفارس بيدرو بالا، الفحل، المقدام.

واتخذ وضع مصارع، ماداً ذراعه. وضحك «الاستاذ» وضحك بيدرو هو أيضاً. وسرعان ما انفجر ضحكهما كالشظايا. ولم يهدءا إلا للاختلاط بجماعة من المتسكعين الذين تحلقوا حول عازف قيثار. كان الرجل يعزف ويغني لحناً من مدينة باهيا.

حين قالت لي وداعاً
جعلت قلبي صلباً

توقفا. وبعد قليل، راحا يغنيان مع الرجل. ومعهم كان الجميع يغنون، كانوا صيادين، ولصوصاً، وعمال موانيء، بل كانت هناك مومس تغني هي أيضاً، وكان الرجل صاحب القيثار منصرفاً تماماً إلى موسيقاه، بل وحتى لم يكن يرى أحداً.

ولو لم يكن الرجل قد نهض ليمضي في طريقه، مستمراً في العزف على القيثار، ومغنياً، لكانا نسيا متابعة طريقهما نحو المدينة العالية. لكن الرجل انصرف، حاملاً معه بهجة الموسيقى. وتفرقت الجماعة، ومر بائع صحف، منادياً على صحف الصباح. وتابع «الاستاذ» وبيدرو بالا في صعود الطلعة، ومن ساحة «المسرح» صعدا شارع «التشيلي». وسحب «الاستاذ» الطبشورة من جيبه، وجلس على الرصيف، وبقي بيدرو إلى جانبه. وحين رأيا الشاب والفتاة قادمين، بدأ «الاستاذ» يرسم. وحقق رسماً، بأسرع ما يمكن. وكان الحبيبان قد اقتربا كثيراً فأخذ «الاستاذ» حينئذ يرسم ملامح وجهيهما. كانت الفتاة تبتسم. لا شك في أنهما خطيبان. لكنهما كانا مستغرقين في حديثهما بحيث لم يلاحظا الرسم. وتوجب أن يقترب بيدرو بالا نحوهما:

ـ لا تسحق صورة الآنسة، يا سيدي...

نظر الرجل إلى بيدرو بالا، وكاد يجيبه بوقاحة، حين لاحظت الفتاة رسمة «الاستاذ»، ولفتت نظر الشاب اليها..



ـ ما أجمل هذا..

وراحت تصفق مثل طفلة قدمت لها دمية.

ألقى الشاب نظرة وابتسم وتحول نحو بيدرو بالا:

ـ هل انت الذي رسمت هذا، يا صغير؟

ـ بل أنه صديقي هذا، الرسام «الاستاذ».

كان «الاستاذ» يضيف بعض اللمسات إلى شارب الرجل، الانيق جداً. ثم راح يكمل رسم وجه الفتاة. وهي حينئذ اتخذت وضع من يجري تصويره، وضحك الخطيبان معاً. ثم تعلقت الفتاة بزند حبيبها.

وأخرج الرجل محفظته، وألقى قطعة نقود من فئة الالفي ريس. التقطها بيدرو بالا على الطائر. وتابعا طريقهما. وبقي الرسم وسط الرصيف، وقد لاحظته عن بعد بعض الاوانس، العائدات من السوق، وقالت احداهن:

ـ لنمض بسرعة، لأن هذه الصورة، هناك، تبدو لي انها اعلان عن فيلم جديد لباربور. ويظهر أنه شاب جميل جداً.. وهو قوي للغاية أيضاً.

وسمع بيدرو بالا و«الاستاذ» ما قالته الفتاة، وقهقها ضاحكين. وسارا، يتأبط كل منهما خصر الآخر، يتابعان طريقهما عبر حرية الطرقات.

توقفا من جديد امام قصر الحكومة تقريباً. كان «الاستاذ» ينتظر، والطبشورة بيده، أن يخرج «زبون أبله» من حافلة الترام. وكان بيدرو بالا يصفر إلى جانبه، عما قريب سوف يملكان النقود الضرورية لدفع ثمن غداء جيد، وأيضاً لشراء هدية لـ «كلارا»، صديقة «حبيب الله الطيب» التي في هذا اليوم عيد ميلادها.

اعطت عجوز قصيرة فلساً ثمن رسمها. وكانت هذه العجوز قبيحة وقد أحترم «الاستاذ» قبحها عبر الرسم. ولاحظ بيدرو بالا قائلاً:

ـ لو أنك رسمتها بصورة أجمل وأرق، لكانت اعطتك المزيد.

جعل «الاستاذ» يضحك. هكذا مرت فترة قبل الظهر، وكان الاستاذ يرسم وجوه الذين يمرون في الشارع، وبيدرو بالا يلتقط قطع النقود الفضية أو النيكلية، التي كانت تلقى لهما. كانت الساعة تعلن الثانية عشرة ظهراً حين ظهر رجل يدخن بمبسم سيجارة يبدو أنه ثمين جداً. وركض بيدرو بالا يبلغ «الاستاذ» منبهاً:

ـ ارسم صورة هذا الابله فهو يبدو غنياً جداً.

وشرع «الاستاذ» يرسم وجه الرجل النحيف، ومبسم السيجارة الكبير جداً، وشعر الرجل المجعد، الذي يبرز خارج القبعة. وكان الرجل يحمل أيضاً كتاباً بيده، وقد ألت

« بالاستاذ » رغبة لا يمكن مقاومتها في رسم الرجل وهو يقرأ كتابه. كاد الرجل يبتعد فاستلفت بيدرو بالا انتباهه:

ـ انظر إلى صورتك، يا سيدي.

سحب الرجل مبسم السيجارة الطويل من فمه، وسأل بالا:

ـ ماذا قلت يا ولدي؟

أشار بيدرو بالا إلى الرسم الذي كان يعمل عليه «الاستاذ». كان الرجل يبدو جالساً (رغم أنه لم يكن هناك كرسي، ولا ما شابه، كان جالساً في الهواء) يدخن بمبسم السيجارة ويقرأ في كتابه. وكان الشعر المجعد يتطاير خارج القبعة. تفحص الرجل الرسم بانتباه، وجعل يتأمله من زوايا مختلفة، لكنه لم يكن يقول شيئاً. وحين اعتبر الاستاذ أن العمل قد انتهى، سأله الرجل:

ـ أين تعلمت فن الرسم، يا عزيزي؟

ـ ليس في أي مكان.

ـ ليس في أي مكان؟ وكيف ذلك؟

ـ هذا مع ذلك صحيح، يا سيدي..

ـ وكيف ترسم أنت؟

ـ أنا أرغب في الرسم، وأوفق، فأرسم.

بدا الرجل غير مصدق. لكن امثلة أخرى بلا شك مثلت في ذاكرته:

ـ هل تعني القول انك لم تتعلم فن الرسم أبداً؟

ـ أبداً، كلا، يا سيدي.

وأضاف بيدرو بالا. أستطيع أن أؤكد ذلك، فنحن نسكن معاً، وأنا اعرف ذلك جيداً

ـ اذن، فهذه موهبة حقيقية. . هكذا همس الرجل.

وعاد يتفحص الرسم، وسحب نفخة طويلة من مبسم سيجارته. وكان الولدان ينظران إلى مبسم السيجارة مسحورين

وسأل الرجل «الاستاذ»:

ـ لماذا رسمتني جالساً وأنا أقرأ كتاباً؟

حك «الاستاذ» رأسه، كما لو أنه كان من الصعب الاجابة. وأراد بيدرو بالا الكلام، لكنه كان متأثراً، ولم يقل شيئاً. وفي النهاية، أوضح «الاستاذ» قائلاً

ـ فكرت أن هذا يناسبك بصورة أفضل



وحك رأسه مجدداً.

ـ لكنني لست اعرف حقاً لماذ؟

وهمس الرجل بصوت أكثر انخفاضاً: هذه موهبة حقيقية... قال ذلك بهيئة شخص حقق اكتشافاً.

كان بيدرو بالا ينتظر النقود لا سيما وأن الحارس كان يراقبهم بحذر وريبة. وكان «الاستاذ» يرمق مبسم سيجارة الرجل، الطويل (أي المبسم)، الموشوم، وهو تحفة رائعة، لكن الرجل تابع قائلاً.

ـ أين تسكن؟

لم يعط بيدرو بالا وقتاً، للاستاذ، لكي يجيب. وكان هو، أي بيدرو، الذي تكلم:

ـ نحن نقطن مدينة القش..

دس الرجل يده في جيبه، وسحب منها بطاقة زيارة:

ـ هل تعرف القراءة؟

ـ أجل نحن نعرف القراءة، يا سيدي.

ـ هذه البطاقة تحمل عنواني وأريد أن تأتي وتسأل عني ولعلي استطيع أن أفعل شيئاً من أجلك.

تناول «الاستاذ» البطاقة. وسار الحارس نحوهم. وبيدرو بالا استأذن للذهاب.

ـ إلى اللقاء يا دكتور.

وكاد الرجل أن يسحب محفظته، لكنه فاجأ نظرة «الاستاذ» إلى مبسم السيجارة فألقى منها السيجارة، وقدم المبسم للولد.

ـ هذا من أجل صورتي، تعال وزرني في منزلي.

لكن الولدين انحدرا بسرعة نحو شارع «التشيلي»، لأن الحارس كان قد وصل اليهما تقريباً وكان الرجل ينظر دون أن يفهم، حين سمع صوت الحارس:

ـ هل سرقا منك شيئاً، يا سيدي؟

ـ كلا، لماذا؟

ـ لأنه، نظراً لأن هذين اللصين كانا قربك...

ـ إنهما ولدان، ثم إن احدهما أظهر استعداداً ممتازاً للرسم

رد الحارس: ـ إنهما لصان وهما من عصابة «فرسان الرمال».

ـ «فرسان الرمال»؟ هكذا سأل الرجل وهو يجهد لكي يتذكر. لقد سبق أن قرأت شيئاً في هذا الصدد ألا يتعلق الأمر بأولاد مشردين لقطاء؟

ـ لصوص، نعم، هكذا هم.

انتبه، يا سيدي، حين يقتربون منك. وأنظر إذا لم تكن قد فقدت شيئاً ما...

أشار الرجل بالنفي. ونظر إلى ناحية الشارع. ولكن لم يبق اي اثر للغلامين. وشكر الرجل الحارس، مؤكداً مرة أخرى أنه لم يسرق منه شيء، ونـزل في الطـريـق وهـو يهمس:

ـ هكذا نفقد فنانين كباراً. وهذا الصبي يمكن أن يصبح رساماً عظيماً!

كان الحارس يتأمل في الرجل. وإثر ذلك علق قائلاً لازرار بزته:

ـ بحق تماماً من يقول أن هؤلاء الشعراء ممسوسون، فاقدوا العقل...

كان «الاستاذ» يظهر مبسم السيجارة. وكانا قد وصلا إلى خلفية ناطحة سحاب، يوجد فيها (أي الخلفية) مطعم ممتاز. وكان بيدرو بالا يعرف كيف يحصل من الطباخ على بقايا الطعام. ووقفا ينتظران طعامهما في الشارع الخالي من المارة. وبعد أن اكلا، قدم بيدرو بالا السجائر، وكان «الاستاذ» يتأهب للتدخين بمبسم السجارة، الذي اعطاه الرجل له. وسعى لتنظيفه.

ـ الحيوان نحيف مثل العصا. ويمكن أن يكون مسلولاً...

ونظراً لأن «الاستاذ» لم يجد لأجل تنظيف مبسم السيجارة شيئاً أفضل من بطاقة زيارة الرجل. فقد فتلها وأدخلها في مبسم السيجارة، وحين انتهى من تنظيفه، رمى الورقة في الشارع. وسأله بيدرو بالا:

ـ لماذ لا تحتفظ بها؟

ـ ولأي شيء؟

واستغرق «الاستاذ» في الضحك. وجاراه بيدرو بالا وملأت ضحكاتها الشارع فترة. كانا يضحكان هكذا، بدون سبب، لمجرد متعة الضحك.

لكن بيدرو بالا استعاد جديته:

ـ كان يبدو أن الرجل قادر تماماً على مساعدتك لتصبح رساماً...

وتناول البطاقة وقرأ اسم الرجل:

وقال: ـ عليك الاحتفاظ بها، فمن يدري؟

خفض «الاستاذ» رأسه:

ـ كف عن البلاهة، يا بالا. انت تعـرف جيـداً أنـه لا يظهـر مـن وسطنـا إلاّ لصوص... ومن ترى يمكن أن يهتم بنا؟ من؟ لا شيء سوى اللصوص، لا شيء سوى اللصوص...



كان صوته يرتفع عالياً، وأصبح الآن يصرخ في حقد.

هز بيدرو بالا رأسه بالايجاب، وتركت يده البطاقة التي سقطت في الساقية. والآن لم يعودا يضحكان، بل أصبحا حزينين وسط بهجة هذا الصباح المشمس، هذا الصباح المشابه للوحة رسام من «الفنون الجميلة».

كان عمال يمرون ذاهبين إلى عملهم، بعد فطور الفقراء، كان هذا هو كل ما يريانه، كل ما توصلا إلى رؤيته في ذلك الصباح.

* * *